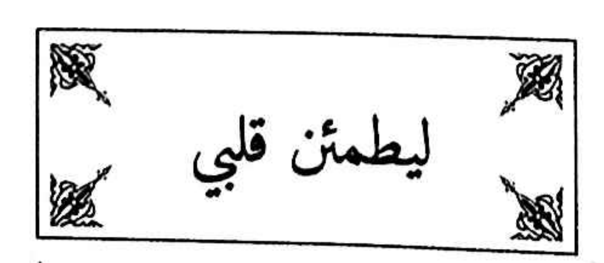
ليطمئن قلبي

(رحلة في مرابع الإيمان)

د. البشير عصام المراكشي



للنشر والتوزيع


ليطمئن قلبي



الطبعة الأولي

2019م / 1440هـ

تصميم الغلاف: شادي عاطف

ليطمئن قلبي

رقم الإيداع: 19032/ 2019

عدد الصفحات: 200 صفحة

المقاس: 14× 20 سم

الكاتب: البشير عصام المراكشي



للنشر والتوزيع

العنوان الرئيسي : ١٠ شارع البيطار
خلف جامع الأزهر - القاهرة - مصر
ت: ٠١٠٠٥٢٢٦٤٠٤ / ٠١١١٤٢٢٦٤٠٤

www.al3asrya.com
info@al3asrya.com
al3asrya



ليطمئن قلبي

(رحلة في مرابع الإيمان)

د. البشير عصام المراكشي







بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

كنت بصدد تدوين حروف هذا الكتاب، حين فجعني خبر وفاة والدي الحبيب..

بدأت الكتابة وأنا أتفيأ ظلال دعواته الطيبة اللذيذة في سمعي،

وأنهيتُها وقد انقطع دعاؤه عني، فانقطع عني بذلك خير كثير!

فما كنت أُعدُّه ليكون إهداءً له، يُقرأ عليه وعلى والدتي الحبيبة، فيباركه كعادته بالدعاء والثناء،

ها أنا ذا أجعله إهداءً لروحه المطمئنة الراضية المرضية - فيما أحسب ولا أزكي على الله أحدا..

ولعل هذا الإهداء يُقرأ على والدتي الفاضلة فتدعو لي..

ولعل هذا العمل يُكتب في ميزان حسنات والدي، فقد علمني ورباني وأرشدني إلى كثير من الخير، ونبهني على كثير من المزالق، وحاط غرسي بالرعاية عقودا طويلة، حتى أثمر بإذن الله وتوفيقه..

وإني لأرجو من الكريم سبحانه مزيدا من عطائه الوفير..



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه.

أما بعد:

فهذا كتاب أعددتُه لعامة المسلمين وخاصتهم، راجيا به النفعَ لكاتبه وقارئه، والأجرَ من الكريم سبحانه.

فأما عامة المسلمين، فلعله يكون لهم مرشدا إلى أصول هذا الدين، وقواعده الكبرى، التي لا غِنى للمسلم عن الإلمام بها في هذا العصر الذي يموج بالانحرافات، ويضطرب بالانتكاسات، وتتفجر من ثقافتِه أنهارُ الحيرة والتقلب والنسبية..

وأما الخاصة فلعلهم يجدون فيه ترتيبا حسنا، أو فائدة شاردة، أو فكرة تستحث في أذهانهم التدبر، وتغري عقولهم بالبحث والتأمل.

وقد جعلتُه محيطا بأغلب ما يحتاج إليه المسلم المثقف اليوم، في معرفة ربه ونبيه ودينه، وما يتعلق بذلك من التصورات والاعتقادات

عموما، مع أصول الكشف عن الشبهات التي تثار في هذا الزمان، لتكوين حصانة علمية لدى المثقف العادي، مع القصد إلى بناء الصحيح لا هدم الباطل، وإن جاء هذا الأخير عرضا.

ولم أشأ أن أجعل الكتاب على صيغة أكاديمية، مرتبة وفق أبواب وفصول، وإنما جعلته على صورة رحلة فكرية تدبرية، تنطلق مِن لا شيء، وتصل إلى كل شيء!

هي رحلة تبدأ من أساس ثابت، ثم ما تزال تبني عليه في كل محطة طابقا جديدا، حتى يكتمل المعمار باذخا سامقا، يسرّ الناظرين..

تبدأ من إثبات وجود البارئ سبحانه ببراهين مختلفة؛

ثم تنتقل إلى إثبات ما يجب له من الربوبية والأسماء والصفات وما يستحقه من العبادة؛

ثم تنتقل إلى ظاهرة الوحي والرسالة، وبيان معجزات الرسل ولب دعوتهم؛

ثم تقف مع رسول الله محمد ﷺ، لبيان معجزاته وسيرته، وهيمنة رسالته على الرسالات السابقة، وأصول ما جاء به من الغيبيات؛

ثم تحط الرحال في محطة السنة النبوية، بيانا لمكانتها في التشريع، ولتكفل الله تعالى بحفظها، وجهود المسلمين في ذلك؛

ثم تقف مع جيل الصحابة الكرام، وصفا لمناقبهم، وتوضيحا لمراتبهم، وبيانا لواجب المسلمين تجاههم؛

ثم تختتم بمحطة أخيرة، فيها شذرات متعلقة بالفكر الإسلامي، وقضية التراث، وبعض أصول السياسة الشرعية، وقضية التوافق أو التعارض بين العلم والدين.

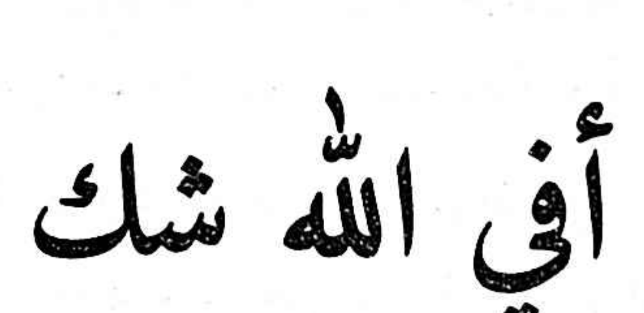
وقد تحريتُ أن أجعل لمحطات هذه الرحلة، عنواناتٍ مقتبسة من القرآن الكريم، تنبيها على أن القرآن أصلُ كل خير، ومنبع كل علم، ومنطلق كل معرفة يتحلى الإنسان بها - علِم ذلك من علمه، وجهله من جهله..

ووضعتُ في مبتدأ كل محطة اقتباسات مختارة، ترشد إلى موضوعها، وتحث القارئ على التأمل فيه قبل بدء القراءة.

واللهَ أسأل أن يبارك في هذا العمل، ويعينني على تجويده وإكماله في ما أستقبل من عمري.

والحمد لله على نعمه.

د. البشير عصام المراكشي


أفي الله شك





﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الطور: 35].

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال: هذا خلق الله الخلقَ، فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئا فليقل: آمنت بالله) رواه مسلم.

إن الإقرار والاعتراف بالخالق فطري ضروري في نفوس الناس، وإن كان بعض الناس قد يحصل له ما يفسد فطرته حتى يحتاج إلى نظر تحصل له به المعرفة.

ابن تيمية (مجموع الفتاوى: 16/ 328)

فطرة الله التي فطر الناس عليها

ما أشد حيائي اليوم، وأنا أخط هذه الكلمات..

كيف يطاوعني قلمي وأنا أكتب سطورا أبرهن لكَ فيها على وجود ربي وربك ورب الناس أجمعين؟!

كيف لا تتمرد أوراقي فترفض أن أخط عليها دليلا على ما هو الدليل إلى كل شيء، والأصل في كل شيء؟!

كيف أخاطبك بحجة على وجود الله تعالى، وأنا وأنت نعيش على أرضه، ونستظل بسمائه، ونأكل من رزقه، ونطمئن إلى لطيف رعايته؟!

ولكن ما حيلة المضطر؟

وكيف أصنع إذا كان بعض الناس يأبَون إلا أن ينكروا البدهيات، ويجحدوا اليقينيات؟

وجدت نفسي مضطرا إلى ركوب هذا المركب، فأقبلت عليه راجيا في ذلك أجرا ومغفرة من الغفور الكريم سبحانه..

وعدت إلى نفسي أسألها عن ذلك الحياء، أيمكن التخلص منه؟

فأخبرَتني بأنه شعور لازم، وإحساس راسخ، يجتمع على تثبيته فطرةٌ هي أساس المعارف، وعقل هو معيار الفكر، وعلم هو أداة الارتقاء، وتأمل يزعزع الاعتياد..

وقبل ذلك وبعده: ضعف وافتقار ذاتيان..

نعم..

أنا ضعيف فقير..

ولأنني كذلك فإنني أحتاج إلى ربي الغني القدير..

وأنا حين أقر بذلك مختارا متذللا، فإنني أسألك:

ألستَ مثلي؟

بل أسألك:

من ذا الذي يزعم من البشر أنه ليس ضعيفا فقيرا؟!

إلا أن يكون كاذبا كاذبا..

أنت أيها الحبيب..

يا من فقد بوصلته في هذا البحر الهائج..

اترك الجدالات..

اترك الشبهات..

اترك الناس كلهم.. وما قالوا.. وما قيل لهم..

اُخلُ بنفسك بعيدا عن كل رقيب..

واسأل نفسك سؤالَ باحث عن الحق:

تُرى.. هل أستطيع العيش الطيب الهنيء دون سند من ربٍّ أتوجه إليه، ليمحوَ ضعفي ويجبر كسري؟!

تُـرى.. هل أقدر حقا على محو هـذه الفطرة المتجذرة في قلبي، والتي تدفعني كل لحظة إلى الأنس بالعليّ الأعلى؟!

نعم..

إن الإنسـان -مهمـا تكن درجة قوتـه وجبروته - لا ينفـك عن العجز الـذاتي، الذي ينمّي فيه الشـعور بالافتقار إلى إله قـادر مدبر، يلتجئ إليه في حاجاته، ويجبر نقصَه بالتوجه إليه.

ولما كان العجز لازما للإنسـان، كان هذا الشـعورُ الناشـئ عنه: لازما له أيضا.

وهذه حقيقة ارتكاز معرفة وجود الله في الفطرة الإنسانية.

إن بني آدم أجمعين يشتركون في شعور اللجوء إلى الخالق سبحانه عند الشدائد. فما أكثر ما يفزع الإنسان ـ ولو كان مشركا أو ملحدا ـ عند المصيبة إلى ربه سـبحانه، ويلتجئ إليه وحده دون غيره من المعبودات الباطلة؛ بل إن اعتداده بنفسـه وقدراته الشـخصية يتزعزع عند الحاجة، ويشعر في قرارة قلبه بافتقاره إلى ربه، وإن أظهر غير ذلك دفعا للحرج، واعتزازا بالإثم.

وقد قرر القرآن الكريم هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: 12].

فرجوع الإنسان إلى ربه سبحانه عند الشدة، برهان جلي على أن فطرته مقرة بوجود الله وربوبيته، وإن كان يُظهر حالَ الرخاء عكسَ ذلك.

ونحن حين نقول بفطرية معرفة الله تعالى، لسنا نزعم أن هذه المعرفة تبقى ملازمة للإنسان في كل أحواله، كما لا نزعم أنها تبقى سالمة لا تتأثر بالعوارض الخارجية ومؤثرات البيئة المحيطة. ولأجل ذلك فإننا نقرر أنها تحتجب أو تنتكس أو تتزعزع، فتأتي الشدائد لتكشف الحجاب، وتزيل الغشاوة، وتبطل أثر المؤثرات الخارجية.

ومما يدلّ على ثبوت معنى الإيمان بوجود الله في أصل فطرة الإنسان: ملازمةُ التدين لتاريخ البشرية.

إن تدبر تاريخ الأمم والحضارات والأديان يفضي إلى نتيجة مشرقة واضحة، وهي أنه لم يخل قطّ عصر من العصور، أو أمة من الأمم، من دين أو معبود، سواء أكان حقا أو باطلا! ومهمة الرسل إنما هي تصحيح هذه الفطرة وتكميلها، ببيان ما يجب للمعبود وما يمتنع في حقه، ليتجه المخلوق إلى المعبود الحق، وهو الله ﷻ.

وهذا يدل على أن التدين - وقبله الإقرار بوجود خالق للكون مدبرٍ له - أمرٌ فطري متجذر في النفوس، يشترك الناس فيه، على اختلاف أحوالهم وعلومهم وبيئاتهم.

فلو أن شخصا - أو مجموعة أشخاص - تُركوا على جزيرة نائية، دون تعليم أو تأثير خارجي، لوصلوا إلى ضرورة الإيمان بوجود الله؛ إذ ما ثبت تكرره ورسوخه في حق الإنسانية في عصورها المختلفة، صالحٌ لأن يوجد في أية مجموعة مخصوصة منها.

وهذا هو معنى فطرية معرفة وجود الله!

وقد يعترض بعض الناس بأن هذا ليس مطردا في تاريخ الإنسانية، بدليل ما نراه في هذا العصر من كثرة الملاحدة اللادينيين!

والجواب: أن الكثرة لا تعني الأكثرية، فهم كثيرون حقا - لأسباب مختلفة - لكنهم مع ذلك أقلية إن قورنوا بالمتدينين.

فالإلحاد يبقى إذن استثناءً مخالفا للأصل في البشر، وهو لذلك يحتاج إلى البحث عن أسبابه، كما يبحث عن سبب كل ما يخالف الأصلَ المستقر.

ثم لو فرضنا أن معرفة وجود الله ليست فطرية - أي أنها من العلم النظري الذي يحتاج إلى إقامة البرهان عليه - فإنه لا بد من وجود علوم فطرية ضرورية ينتهي الاستدلال إليها، ولا يقوم إلا بها، وإلا لزم التسلسل اللانهائي.

وهذا أمر يوافق عليه العقلاء جميعهم، إذ لا يوجد عاقل يزعم أن كل المعارف لا بد من البرهنة عليها!

فلننظر في هذه العلوم الفطرية الأولية التي يذكرها بعض الناس..

الحق أننا إذا تأملناها، وجدنا أنها لا تزيد في "ضرورتها" على العلم بوجود الله!

بل إن معرفة الله أكثر استقرارا في قلوب الناس من كثير من هذه المقدمات العلمية التي يعتقد أهل النظر أنها ضرورية فطرية.

فإما أن يقال بفطرية معرفة وجود الله كما يقال بفطرية هذه المعارف

الأوليـة، وإما أن يقال بنفي المعارف الفطرية كلها، وحينئذ لا يمكن تثبيت أي استدلال عقلي، للحاجة إلى أساس ضروري يمكن الرجوع إليه!

نعم..

إن الفطـرة الدالة على وجود الله أقوى من أي دليل آخر، علميا كان أو عقليا..

إنها الأساس التي تبنى عليه المعارف الإنسانية جميعها..

ولذلـك يصـرّ الفيلسـوف الأمريكـي ألفيـن بلانتنجـا "Alvin Plantinga"، على أن "الإيمان شـعور فطري"، وأن الاعتقاد في وجود الإله مثل الاعتقاد في مفاهيم أساسية أخرى، كالاعتقاد بأن للآخرين عقولا كعقولنا، والاعتقاد في صحة حواسنا، والقول بأن الكل أكبر من الجزء[1].

وصدق ربي حين قال:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ ﴾ [الروم: 30].

ثـم إن الفطـرة تعصم من كثيـر من الانحرافات، وتحمـي من كثير من أصناف الخلل، لا يتبين العقل المجرد وجهَ الفسـاد فيها؛ فإن للعقل مزالق ينحطّ فيها عن إدراك الحق، فلا يحفظه إلا صُبابة من الفطرة النقية..

وليس هذا مختصا بقضية وجود الله..

---

(1) نقل هذا أنتوني فلو Antony Flew، كما في كتاب "رحلة عقل" للدكتور عمرو شريف: 59.

ومن شك في الأمر فلينظر إلى حال المجتمعات الغربية اليوم، وليسأل عن العقل -في حضارة قامت على تمجيده-: كيف يبيح بيع الأجساد في أسواق النخاسة العصرية؟ وكيف يقبل زواج النساء بالنساء، والرجال بالرجال؟ وكيف يسمح بتغوّل الشهوات الجامحة حتى تسيطر على كل شيء؟

هذا الذي يحدُث حين نلغي التحاكمَ إلى الفطرة..

فيفقد الإنسان إنسانيته..

ونعود إلى حيث بدأنا بعد هذه الجولة الصغيرة..

وأقول لك:

لا أريدك أن تناقشني في ما سبق، فلا معنى لنقاش عقلي في مجال لا مدخل للعقل فيه..

ولكنني أريدك أن ترجع إلى نفسك، فتفسح لها لتعينها على أن تتمدد خارج قوقعة الجدال المنطقي، وخارج أسوار البيئة التي تعيش فيها، وبعيدا عن قيود «قيل وقالوا»..

أريدك أن تتيح لها الرجوع إلى ما كانت عليه قبل هذه المؤثرات كلها: نفسا بشرية لها فطرة سليمة نقية تقودها إلى أنوار الحق، وتخرجها من ظلمات التحريف والتبديل..

فطرة الإيمان بوجود الله..

فطرة الله التي فطر الناس عليها..

وفي الأرض آيات للموقنين

وبعد أن رجعت إلى فطرتك فبعثتَها من رمادها، وأيقظتها بعد طول رقاد، آن الأوان لتخطو معي خطوة تالية، تخرج فيها مِن إدراكات نفسك ومشاعرها، لتتأمل ما يحيط بك في هذا الكون الفسيح..

وليس هذا التأمل بالأمر اليسير، فإن أغلبَ الناس تهلك سطوةُ الاعتياد قدرتَهم على الخروج من قوقعة الإدراك الحسي المعتاد إلى شساعة التفكر والتدبر؛ فإذا اعتادوا على شيء ما، لم يستطيعوا تأمل ما فيه من العظمة..

فهذا التأمل يحتاج إذن إلى جهد..

وهو يحتاج أيضا إلى رغبة، وذلك لأن بعض الناس يخافون من النتائج التي يمكن أن تنتج عن هذا التدبر..

يخافون من الوصول إلى المحطة الأخيرة التي تتراءى لهم في آخر الطريق، فيمتنعون من الخطوة الأولى عليه..

وقد رأيت أقواما غلبت عليهم الشهوات وسيطرت عليهم الأهواء، يرفضون البحث في بعض مسائل الفقه، والنظر في نصوص الوحي المتعلقة بها، خوفا من الوصول إلى القناعة بتحريم ما هم عليه.. والحال أنهم لا يستطيعون تركه، ولا يتحملون تأنيب الضمير عندما يفعلون المحرم عامدين عالمين!

ولكن مع ذلك كله، فإن داعية الحرص على الحق في نفس كل واحد

منـا، يفرِض سـلوك الطريق مهما بلغ السـير عليه من إرهـاق، ومهما تكن صورةُ محطة الوصول..

وما أجمل أن يكون تأمل آيات الكون المشاهدة، تحت أفياء آيات الله المتلوة..

فلتسـتظل معـي بقـول الحكيـم الخبيـر سـبحانه: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: 20-21].

ولتتأمـل هذا الإرشـاد الرباني إلى أن في خلق الإنسـان منـذ أن كان في رحـم أمه، وتطـوره من حال إلـى حال، ومـا في بدنه من الإحـكام البديع، والإتقـان العجيـب، دليلا على وجـود الخالق الحكيـم. وكذلك فإن ما في الكون من عجائب الإحكام والإتقان، والتنظيم الدقيق الذي يحير الألباب، أعظم برهان على أن له خالقا خلقه بعلم وحكمة.

وقـد حث القـرآن في مواضـع كثيرة علـى النظـر والتفكـر في الكون، والسـير في أرجائـه للاعتبـار، كمـا في قوله تعالـى: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت: 20]، وفي قوله ﷻ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلـت: 53]. ومـن تأمل آيات الله في الكون الفسـيح، سـطعت له أنوار اليقين، وذهبت عنه ظلمات الشك في الربوبية.

بـل التأمـل في جزء صغير من هذا الخلق المتناسـق الجميل، مثل عين

الحيوان، أو مشاعر الإنسان، أو أزاهير البستان؛ يجعل عقلك يذعن، ونفسك تخضع، وجميع كيانك يلين لفكرة وجود الخالق المهيمن سبحانه، ويطرد عنك كثيرا من الوساوس التي يبثها في النفوس حب التجديد، والعجلة في التفكير وتبني الآراء..

وتتداول كتب العقائد أن قوما من الملاحدة أتوا الإمام أبا حنيفة رحمه الله - أو غيره من الأئمة - ليبحثوا معه في تقرير توحيد الربوبية، فقال لهم:

"أخبروني قبل أن نتكلم في هذه المسألة عن سفينة في دجلة تذهب فتمتلئ من الطعام والمتاع وغيره بنفسها، وتعود بنفسها فترسو بنفسها وتفرغ وترجع، كل ذلك من غير أن يدبّرها أحد"

فقالوا:

"هذا محال، لا يمكن أبدا!".

فقال لهم:

"إذا كان هذا محالا في سفينة، فكيف في هذا العالم كله علوه وسفله؟"[1].

وبعد الوصول إلى هذه المرحلة من التدبر - والتي يمكنك أن تستعين فيها بكل علم بشري أو معرفة إنسانية -، يأتي العقل السليم المتجرد للحق، ليصوغ نتيجة التدبر صياغة برهانية..

---

(1) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي: ص 77.

ونستضيء هنا بأنوار قول الله ﷻ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: 35].

فبيّن الله سبحانه أن القسمة لا تخرج عن أحد أمور ثلاثة، أنكر على المخالفين اثنين منها، فما بقي غيرُ الثالث. فإما أن يكونوا من غير خالق خلقهم، وإما أن يكونوا خلقوا أنفسهم، وإما أن يوجد خالق خلقهم، هو الله ﷻ.

والأول والثاني، كلاهما مرفوض بضرورة العقل والحس والواقع، التي لا يمكن جحدها، إذ لا يعقل معدوم يَخلُق، ولا مخلوق بغير خالق. فما بقي إلا الثالث، وهو أن خالقهم على تلك الكيفية البديعة، والهيئة المتقنة العجيبة، هو الله الواحد سبحانه.

وهذا هو المطلوب..

وهذا الاستدلال يدركه كل أحد من نفسه. واشتهر في كتب التراث قول الأعرابي معبّرا عنه كما استقر في الفطرة التي لم يلحقها تغيير: "إن البعرة تدلّ على البعير، والأثر يدل على المسير؛ فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ألا تدل على العليم الخبير؟!".

وكلام هذا الأعرابي على ما فيه من "سذاجة" في التمثيل توافق بيئته ومعارفه البدوية، يلخص - بتركيز شديد - ما سنبسطه بشيء من التفصيل والبيان، مع التمثيل الموافق لعصرنا، في ما يأتي من هذا الحديث..

ويمكننا صياغة هذا الدليل القرآني على طريقة علماء العقائد الأولين، كما يلي:

من المعلوم بضرورة العقل والمشاهدة وجودُ موجودات، لا يمكن الشك فيها؛

وهذه الموجودات منها ما هو حادث بعد أن لم يكن، فإننا نرى حدوث البشر والشجر والمطر ونحو ذلك؛

وهـذه المحدَثات فيها احتمالان: أن تكون قد وُجدت من عدم، أو أن يكون أوجدها مُحدِثٌ لها؛

فأما الاحتمال الأول فغيرُ ممكن، لأن العدم ليس بشيء حتى يوجد غيره؛

وأما الاحتمال الثاني، ففيه صورتان: أن تكون قد أوجدت نفسها، أو أن يكون أوجدها غيرُها؛

والصورة الأولى ممتنعة، فكل إنسان يعلم - بالاضطرار الذي لا يمكن دفعه عن النفس - أنه لا يستطيع خلق نفسه، فهو قبلَ خلقِها لم يكن شيئا!

والصورة الثانية، وهي أنها وجدت بمُوجد آخر، تشمل وجهين:

أن يكون هذا المُوجد حادثا مثلها، فيحتاج حينئذ إلى مُحدِث أيضا، وهذا المحدِث إلى محدِث آخر، فيتسلسل إلى ما لا نهاية. وهذا تسلسل ممتنع بضرورة العقل. وإذا كان المحدَث الواحد محتاجا إلى محدِث، فإذا كثرت الحوادث وتسلسلت كان احتياجها إلى المحدِث أولى!

والوجه الثاني: أن يكون مُوجدُها غيرَ حادث، بل يكون واجب الوجود بنفسه، وهو الله تعالى.

وهذا هو المراد إثباته بهذا الدليل.

برهـان الخلق ـ أو التصميم - الذي ذكرنـاه آنفا، بصيغته القرآنية أولا، وبأسـلوب علماء العقيدة المتقدمين ثانيا، يمكن تقديمه بأسلوب عصري، بالاعتمـاد أولا على أمثلة تقريبية، توضح لك مضمون البرهان، ثم بصياغة منطقية مكونة من مقدمات تأتي بعدها نتيجة.

وقد عَـرف هذا البرهـان تطورات متلاحقـة في صياغتـه، تبعا لأمرين اثنين:

أولهمـا: تقدم المعارف الطبيعية، سـواء أكانت حقائـق ثابتة بمقتضى المناهج العلمية المعتبرة، أو كانت نظريات مفسرة للظواهر الطبيعية بقطع النظر عن إثباتها العلمي.

والثاني: قوة النقـد الإلحادي المثار حول هذا البرهان، وحجم الردود التي تواجهه.

وسـأعرض هنا: صيغة أولى لبرهان التصميم، كان وراءها الفيلسوف اللاهوتي وليم بالي (**William Paley**)، المتوفى سـنة 1805م، في كتاب له صدر عام 1802م[1].

---

(1) "Natural Theology: or، Evidences of the Existence and Attributes of the Deity". Chapter 1: "State of the Argument"; and Chapter 2: "State of the Argument continued". Page: 1-13.

ولنبدأ بمثال تقريبي:

لنفرض أن رجلا متمدّنا كان يتجول في صحراء قاحلة، فوجد فجأة أمامه: ساعةً جميلة، مكونةً من أجزاء صغيرة، وشكل هندسي جذاب.

وشرع الرجل في تفقد هذه الساعة، فاكتشف أمرين لهما أهمية بالغة:

الأمر الأول: أن الأجزاء الصغيرة المكوّنة للساعة، بالغة التعقيد والحساسية.

والأمر الثاني: أن هذه الساعة يظهر أن لها غاية تصلح لها (وهي الإشارة إلى الأوقات)، وكل جزء صغير منها له مساهمة دقيقة في تحقيق هذه الغاية. ولو أن أي جزء اختلف حجمه بزيادة طفيفة أو نقص قليل، لأثّر ذلك على عمل الساعة كلها!

ما الذي سيخطر ببال هذا الرجل المسافر في هذه اللحظة، في موضوع كيفية وجود هذه الساعة؟

لا شك أن الرجل - إن كان عاقلا - سيقول: ''إن شخصا ما صنع هذه الساعة!''.

وسيصل إلى نتيجة واضحة: لا ساعةَ إلا بصانعِ ساعات!

ولنفرض الآن: أن هذا الرجل نفسه - أو غيره - كان يتجول في شوارع مدينته، ووجد كائنا حيا أمامه، لنقل: إنه سنجاب مثلا.

وبدأ الرجل رحلة التأمل في هذا الكائن: في تناسق أعضائه، وتناسب أحجامها مع الوظائف التي تقوم بها، وفي مساهمة كل عضو في تحقيق وظيفة الكائن كله، والحفاظ على حياته، وما أشبه ذلك.

ولنفرض أن الرجل تأمل عضوا واحدا كالعين مثلا، وأنه تدبر ما فيها من الأجزاء الدقيقة (كالشبكية والبؤبؤ والعدسة وغيرها) التي تخدم جميعها وظيفة العين، التي هي الإبصار. ولو أن هذه الأجزاء عرفت تغييرا طفيفا في الحجم أو المسافة بينها بمقدار صغير جدا، لما تحقق الإبصار، ولتعسرت حياة الكائن أو انعدمت!

بعد هذا التأمل، سيقول الرجل - ولا بد - كما قال من قبل عن الساعة:

"إن صانعا ما صنع هذا الكائن وأبدعه بهذه الهيئة المتماسكة العجيبة، ولا يوجد فرق مؤثر بين الصورتين!".

ولكن الإنسان المبتلى بالمراء والتشكيك في البدهيات، يمكنه أن ينتقد هذا البرهان، ويتلمّس فروقا ما بين صورة الساعة في الصحراء، وصورة السنجاب (الكائن الحي)، ليصل إلى أن الاتفاق على الصورة الأولى لا يعني الموافقة على الصورة الثانية!

﴿ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ﴾ [الكهف: 54]..

نعم..

قد يقول قائل:

إن المسافر كان لديه علم سابق بأن الساعات مصنوعة، وقد سبق له غالبا أن زار محلا لصناعتها. وليس الأمر كذلك في حالة السنجاب، فإنه ليس لنا معرفة مسبقة بخلقه!

والجواب: أن هذا الفرق غير مؤثر في صحة قياس صورة على أخرى.

والدليل على ذلك: أن هذا المسافر لو وجد شيئا آخر غير الساعة، لما تغير الحكم!

فلنفرض مثلا أن الحادثة وقعت منذ مائة سنة، وأن المسافر وجد بدلا من الساعة: هاتفا نقالا ذكيا، كالهواتف التي نستعملها اليوم[1]، وأنه قلّب هذا الهاتف واختبره وتدبر أحواله، حتى عرف وظيفته العامة، وعرف كيفية تشكل أجزائه المختلفة، والترتيب الدقيق بينها، ووظيفة كل جزء منها.

لا شك أنه سيقول حينئذ: ((هنالك صانع ما، صنع هذا الهاتف، وأتقن تصميمه))، مع أنه لم يشهد من قبل صناعة الهاتف، ولا كان له علم مسبق بطريقة تصميمه!

وقد يقول قائل آخر:

إن الرجل الذي وجد الساعة، أدرك بأن حركات عقاربها تبين الوقت لحاملها، ولا شك أن معرفة الوقت وظيفة عظيمة النفع للإنسان. فاعتقاده بوجود صانع وراء تصميم هذه الساعة، سببه أن لديه علما مسبقا بأهمية وظيفتها، بحيث يغلب على ظنه أن صانعا ما قد صممها لتحقيق هذه الفائدة للبشر. وليس الأمر كذلك في حالة السنجاب، فقد لا يظهر له فائدة ظاهرة سهلة الإدراك[2]!

---

(1) أنا هنا مضطر لاستعمال آلة عصرية، مع إرجاع الحادثة زمنيا إلى الوراء، وذلك لعجزي عن تخيل شيء من المصنوعات المستقبلية.

(2) وإن كان البحث العلمي الدقيق، قد يوصل إلى فوائد عامة على البيئة أو السلسلة الغذائية أو ما أشبه ذلك.

والجواب: إن هذا الفرق أيضا غير مؤثر!

فلو أن المسافر وجد - قبل مائة سنة - جوالا ذكيا، ولم تكن لديه أدنى فكرة عن فائدته بالنسبة للبشر، لَحَكم بعد تأمل أضواء شاشته وعجائب ما فيه من الألوان المتناسقة، والأيقونات حسنة الترتيب، ونحو ذلك، بأنه مصنوع. بل لقال: ما أذكى هذا الصانع الذي صمّم هذه الآلة الغريبة!

فمعرفة فائدة الشيء ليست مؤثرة في الحكم بكونه مصنوعا أم لا.

وقد يقول قائل ثالث:

إن الساعة لا «تتناسل»، فهذا المسافر سيلحظ أن الساعة لا «تلد» مثلها، وليس لها أم وأب، وُلدت منهما. أما السنجاب فهو بعكس ذلك تماما.

والجواب: أن هذا الفرق كذلك غير مؤثر!

فلنفرض أن المسافر بعد تأمله الساعة ومعرفة وظائفها، تبين له أن لها خاصية عجيبة، وهي القدرة على إنتاج نسخ من نفسها!

ألا ترى أن أول خاطر سيخطر بباله هو: «ما أعظم الصانع الذي صنع هذه الساعة، وما أشد عبقريته!». ولن يخطر بباله قط، أن الساعة لا صانع لها، ما دامت قادرة على إنتاج نسخ من نفسها.

وإذا صح هذا في صورة الساعة، فهو صحيح أيضا في صورة السنجاب، فتوالده لا يمنع من الحكم بكونه مخلوقا، وأن هنالك صانعا صمّمه، بل إنه مما يدخل في إتقان الصنعة الذي يؤكد ضرورة وجود الصانع.

بعد أن ذكرنا هـذا المثال التقريبي، فإننا يمكن أن نعيد صياغة البرهان في صورة مقدمات ونتيجة، لتكون صياغة منطقية مقبولة في حكم العقل.

وهذا يحتاج منا إلى استدعاء أحد المبادئ الفلسفية المعروفة، وهو: مبدأ الاستدلال بأفضل تفسير[1]. وملخصه أننا حين نجد أنفسنا أمام حدث معين، يمكن أن يكون له تفسيرات مختلفة، وأن هنالك تفسيرا هو الأفضل، والأقرب إلى أصول العقل، فالواجب اعتقاد هذا التفسير والأخذ به على أنه التفسير الصحيح.

ونحن نعمل بهـذا المبدإ في حياتنا اليومية مرارا، دون أن نتفطن له. بل لا تقوم الحياة إلا بذلك!

فلو أنك استيقظت في الصباح، فوجدت العشب أمام المنزل مبتلا، فإنك تحكم بسقوط المطر خلال الليل، لأن هذا هو التفسير الأفضل لما رأيته[2]. ولو رأيت أن عيني ابنك محمرّتان، وأن أنفه يسيل، وأن حرارته مرتفعة، فإنك تحكم بأنه مصاب بنزلة برد، لأن هذا هو التفسير الأفضل لتلك الأعراض. وهلم جرا.

إذا استقر هذا، فلنذكر برهان التصميم، بحلته الجديدة:

المقدمة الأولى: قاعدة الاستدلال بأفضل تفسير. وقد سبق شرحها.

المقدمة الثانية: أجزاء الكائنات الحية مناسبة للحفاظ على حياتها، وأداء وظائفها على أكمل الوجوه.

---

(1) Inference to the best explanation.

(2) إلا أن تكون في منطقة قاحلة، يكاد يمتنع فيها سقوط المطر في العادة، فقد يكون حينئذ التفسير الأفضل شيئا آخر، مثل أن البستاني هو الذي سقى العشب!

المقدمة الثالثة: أفضل تفسير لما جاء في المقدمة الثانية: أن هنالك صانعا صمّم هذه الكائنات على تلك الهيئة المحكَمة.

النتيجة: يجب علينا اعتقاد وجود الصانع المصمّم لهذه الكائنات الحية.

وأكرِم بها من نتيجة..

إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ..

هكذا قال ربي بعد أن ذكر من آيات الكون ما تخشع له القلوب وتسكن به الأرواح..

يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: 27-28].

فالعلم ببديع صنع الكون يرشد إلى خشية الله، وقبل ذلك إلى إثبات وجوده وكماله في أسمائه وصفاته..

والعلمُ أداة معرفية، تُستعمل - كغيرها من الأدوات - في الحق وفي الباطل معًا..

فما أتعس اليدَ التي تحمل هذه الأداة، لتتقصّد بها حقا تسعى إلى إهلاكه..

وما أسعدها حين تحمل هذه الأداة، لتحقّ بها الحق وتبطل الباطل!

ويكفيك - أيها الحبيب - أن تبرئ يدك الحاملة للأداة من اتباع للهوى، يمنعك من حسن استعمالها..

اترك الأداة تؤدي عملها على ما أراد الله لها، دون أن تتدخل فيها بأفكارك المسبقة، المفعمة بالشكوك..

اترك العلم يتحدث..

من أحسن الأدلة على وجود الله تعالى ما يسمى: برهان الضبط الدقيق "Fine Tuning Argument".

وصيغته التي سأذكر هنا حرّرها الفيلسوف المعاصر: روجر وايت "Roger White " في بعض كتاباته.

ولنبدأ بمثال توضيحي، ننتقل منه إلى تقرير البرهان..

لنفرض أن قنبلة نووية هائلة تهدد حال انفجارها بتدمير الكرة الأرضية كلها، وأن الطريقة الوحيدة لتفادي الانفجار، هو أن تكون رموز حقيبة التفجير موافقة بالضبط لسلسلة مخصوصة من الأرقام، في الوقت الذي بُرمج فيه الانفجار، أي قبل ساعة من الآن مثلا. وأي تغيير يحصل في رمز واحد، يؤدي ولا بد إلى انفجار القنبلة وتدمير الأرض كلها!

ولنفرض أن أزرار الحقيبة المحتوية على الرموز، مرتبطة بواسطة أسلاك إلى محاور دائرية تتأثر بقوة الريح وتوجُّهها، بحيث إن هبوب الريح في اتجاه معين بقوة معينة يجعل الزر على رقم مخصوص.

ولنفرض أن القنبلة النووية لم تنفجر في ذلك الوقت المعين، بل إن الكرة الأرضية سالمة آمنة مطمئنة، مما يعني أن رموز حقيبة التفجير كانت قبل ساعة من الآن موافقة تماما لما ينبغي أن تكون عليه في حالة عدم الانفجار!

ما الذي يخطر ببالنا حينئذ (غير السعادة العظيمة بعدم انفجار الكرة الأرضية، بالطبع)؟

يمكــن لبعضنا أن يقــول: إن هذه محض صدفة، ونحــن محظوظون، لأن الرموز وافقت السلسلة الصحيحة، في ذلك الوقت المحدد بالضبط.

ولكــن لا شــك أن التفسـير الأكثر موافقــة للعقــول السـليمة، هو أن شــخصا مــا تدخّل في الأمــر، فثبّت رمــوز الحقيبة في الوقــت المحدد على الأرقام المطلوبة.

ولا شــك أننا لن نجد عاقلا يشـكك في صحة التفسير الثاني، وهشاشة التفسير الأول!

بعد أن شرحنا هذا المثال التوضيحي، لننتقل الآن إلى محور آخر.

يتــداول الفيزيائيــون في قوانيــن الفيزياء التي تحكم الكــون، مجموعةً مــن الأعــداد الثابتــة، التــي يســمونها: "ثوابــت كونيــة Cosmological constants"، مثل: سرعة الضوء أو قوة الجاذبية أو ما أشبه ذلك.

ويقرر الفيزيائيون أمرين اثنين:

أولهما: أنــه لا يوجد في قوانين الفيزياء ما يحتّم أن تكون هذه الثوابت بقيمها المعروفة. أي: لا يمكن التنبؤ بهذه القيم انطلاقا من قوانين الفيزياء.

والثاني: أن كل واحدة من هذه الثوابت لو تغيرت قيمتها - ولو بمقدار صغير جدا - لتغير الكون، بحيث لم يعد صالحا لنشأة الحياة فيه!

ولنأخذ مثالا يوضح الفكرة، وليكن هو: قوة الجاذبية.

يقــول أهل الفيزياء: لــو أن الجاذبية كانت أضعف ممــا هي عليه، ولو

بقدر ضئيل جدا، لتشتتت المادة بعد الانفجار الكبير (The Big Bang) في الكون كله، ولم تتجمع في مجرات ونجوم وكواكب ونحو ذلك، ولما كانت الحياة ممكنة!

وبعكس ذلك، لو أن الجاذبية كانت أقوى مما هي عليه، ولو بمقدار قليل جدا، لما أمكن للمادة أن تتمدد بعد الانفجار الكبير، ولبقيت إذن في موضع محصور، بالغ الكثافة، ولما كانت الحياة ممكنة أيضا!

فتبين لنا إذن، أن قوة الجاذبية - وهي واحدة من ثوابت فيزيائية متعددة- لو تغيرت بزيادة طفيفة، أو نقص قليل، لتغير الكون كله، ولما أمكن للحياة أن توجد!

نخلص إذن إلى أن الثوابت كان بالإمكان أن تكون على غير ما هي عليه (لأن قوانين الفيزياء لا تحتم قيما مخصوصة لها)، ونخلص أيضا إلى أن هذه الثوابت لو كانت على غير ما هي عليه لما وجدت الحياة في الكون.

ألا يشبه هذا رموز حقيبة التفجير التي يمكنها أن تكون على غير ما هي عليه بسبب الريح المتحكمة في الأزرار، ولكنها لو تغيرت عما هي عليه لانفجرت الكرة الأرضية؟!

وبما أننا - في صورة القنبلة النووية - حكمنا - انطلاقا من تحققنا من وجودنا الدالّ على عدم وقوع التفجير في الوقت المحدد له - بأن شخصا ما، مريدا لحماية الأرض من التدمير، هو الذي حدّد قيم الأزرار لتكون الرموز موافقة لسلسلة الأرقام المطلوبة، فإننا أيضا في الصورة الأخرى، نحكم - انطلاقا من تيقننا بوجود الحياة في الكون - بأن صانعا مُصمما،

مريـدا لوجـود الحيـاة في الكون، هو الذي جعـل للثوابـت الفيزيائية قيمها المحددة، التي بدونها تنعدم الحياة.

فثبـت وجود الله ﷻ، المبدع لهذا الكون. وهذا هو المطلوب من هذا البرهان.

***

وكما فعلنا مع برهان التصميم في صيغته الأولى، فلنصغ البرهان الذي بين أيدينا في صورة مقدمات تتلوها نتيجة.

المقدمة الأولى: قاعدة الاسـتدلال بأفضل تفسـير، التي سبق شرحها في المقال السابق.

المقدمـة الثانية: كـون العالم الذي نعيش فيه قابلا لنشـوء الحياة، أمر يحتاج لتفسير.

المقدمة الثالثة: أفضل تفسـير لوجـود الحياة في الكون، هو أن الخالق سبحانه أعطى للثوابت الفيزيائية قيمها الملائمة لذلك.

النتيجـة: وجود الخالق المبـدع، الذي أتقن خلق الكـون، بما فيه من الكائنات الحية.

***

لا شـك أن برهان الضبط الدقيق، من أقوى الأدلة على وجود الخالق سبحانه، خاصة إذا تعزز بما استقر في نفوس الناس من الفطرة السليمة، قبل تعرضها للتحريف والإفساد.

ومع ذلك فإن دعاة الإلحاد، في سعيهم اليائس لمخالفة الفطرة، وإنكار الواضحات العقلية، تعرضوا لهذا البرهان ببعض التشكيك.

لقد قالوا مثلا:

"لا نقرّ بالمقدمة الثانية، بل نقول: وجود الحياة في الكون لا يحتاج إلى تفسير. كما لو أن شخصا رمى قطعة نرد، فجاءت على رقم 9 مثلا، فإنه لا يحتاج إلى تفسير ذلك ولا يسأل عنه أصلا".

وجوابنا:

أن من الظواهر ما يحتاج إلى تفسير ومنها ما لا يحتاج إليه.

ففي حالة النرد، لا فرق بين رقم 9 وبين غيره من الأرقام، ولا تميز لهذا الرقم على غيره. فلو وقع السؤال: لِم رقم 9 خصوصا؟ لقلنا: ولِم لا يكون كذلك؟ فلو لم يكن رقم 9 لكان رقم 4 مثلا، ولو وقع السؤال نفسه[1]!

ولا شك أن هذا فرق جوهري بين صورة لعب النرد، وصورة نشوء الحياة في الكون!

فالحياة تتسم بالجمال والتنسيق والترتيب، الذي يجعلها متميزة -بما لا وجه لإنكاره- عن عدم الحياة. ووجود هذه الحياة المتميزة بعد إعطاء قيم مخصوصة للثوابت الفيزيائية من ضمن ما لا يحصى من القيم الأخرى، أمر عجيب يحتاج إلى تفسير ولا بد!

---

(1) هذا بحسب بظاهر الحال، وإلا فإننا نعلم أن خروج رقم معين يخضع لاعتبارات فيزيائية دقيقة يصعب حصرها (القوة الدافعة، درجة مقاومة الريح، نوع الاحتكاك على البساط، ..). ونعلم نحن الموحدين أن هذا كله - وإن بدا لنا اتفاقيا - هو بمحض تقدير الله عز وجل.

وأقرب ما يماثل هذه الحالة التي نَصفها الآن: المثال الآتي.

لنفـرض أن لديّ فوق الطاولة عددا كبيرا مـن البطاقات الصغيرة التي فيها حروف اللغة العربية مثلا. ولنفرض أنني غبت برهة يسيرة من الزمان، ثم رجعت فوجدت بعض هذه البطاقات مرتبا على الطاولة بحيث يقرأ منها القارئ الجملة الآتية: "**الإلحاد مخالَفةٌ للفطرة، ونقص في العقل**".

ما الذي يخطر ببالي حينئذ؟

لا شك أنني سأعتقد جازما أن شخصا ما (والظاهر أنه مؤمن عاقل!)، دخل الغرفة قبلي ورتّب الحروف على وفق تلك الجملة الطيبة. ويستحيل أن أعتقد أن النسـائم المتسربة من النافذة هي التي حرّكت البطاقات، فوقع لها ذلك الترتيب العجيب بمحض الصدفة!

وبعبـارة أخرى: إن ما في وضع الجملة من التنسـيق والترتيب والتميز عن الأوضاع العشوائية الأخرى، يجعل الأمر محتاجا إلى تفسير. والتفسير الذي يفرض نفسه هو تدخل شخص ما في ترتيب البطاقات.

والملاحـدة في هـذا الموضـع مـن مناقشـة الدليـل، يفـرّون إلى أحد مخرجين:

المخرج الأول: فرضية "الأكوان المتعددة".

أي: إذا كان الكون الذي نحن فيه قد وقع ضبطه على القيم التي تنشـأ بها الحياة، فإننا نفـترض وجود أكوان أخرى كثيرة جدا، بعدد الاحتمالات التـي يمكن نظريا أن تكون عليها الثوابت الفيزيائية! فهنالك كون آخر، قوة

الجاذبية فيه أقل من قوة الجاذبية في كوننا بنسبة ٪1 مثلا، وكون آخر تكون فيه أقل بنسبة ٪2 مثلا، وثالث تكون فيه أكثر بنسبة ٪1، وهلم جرا!

فهنالك أكوان متعددة، بقدر ما لدينا من الاحتمالات في قيم الثوابت الفيزيائية؛ وهنالك كون واحد فيه الضبط الصحيح الموافق لنشأة الحياة!!

وهذا الافتراض في مثل هذا المقام العلمي، أقرب إلى التفسير الدوغمائي، والفكر الغيبي (الذي ينكرونه على أهل الأديان) منه إلى المنهج العلمي العقلاني (الذي يتشدقون به)!

وهذا شبيه بقول القائل، في صورة بطاقات الحروف السابق بيانها:

إنني أفترض أن هنالك طاولات أخرى كثيرة، وقع في كل واحدة منها - تحت تأثير الريح - ترتيبٌ معين للحروف، لا ينتج جملة مفيدة. وأن الطاولة الوحيدة التي تكونت فيها جملة ذات معنى، هي التي في بيتي، وأمام عيني!

أيعدّ من العقلاء، مَن يزعم مثل هذا؟!

المخرج الثاني: التزام وقوع الأمر بمحض الصدفة، وهو ما يسمونه برهان القِرَدة.

وملخص البرهان - المنسوب إلى توماس هكسلي Thomas Huxley - أن مجموعة من القردة لو تُركت تضرب على مجموعة من الآلات الكاتبة لمدة زمنية كافية، فإنها ستستطيع دون ريب أن تكتب قصيدة من قصائد شكسبير، أو ربما إحدى مسرحياته!

والحق أن هذا البرهان ضعيف جدا. فقد أثبت بعض الرياضيين[1] أن

---

(1) يراجع كتاب «خرافة الإلحاد»، عمرو شريف: ص 341.

عمر الكون كله لن يكفي لكتابة مسرحية واحدة لشكسبير لو ضرب القرد على آلة كاتبة بمعدل مرة كل نانو ثانية (أي: كل جزء من مليار جزء من الثانية)!

وبعبارة أخرى: فإن الحقائق الإحصائية صريحة في أن المادة مهما بلغت من حجم، ومهما أعطيت من زمن، فإنها لا تقدر على إنشاء الحياة بالصدفة.

فمراهنة أهل الإلحاد على الصدفة وعامل الزمن، مخالفة للمنهج العلمي السليم، وهروب - لأسباب نفسية غير علمية ـ مما تقتضيه أدلة الفطرة والتصميم من ضرورة اعتقاد وجود الله ﷻ.

.. رحمة للعالمين

نعم..

ما أُرسل نبينا محمد إلا رحمة للعالمين..

للبشر وللبهائم وللأرض والسماء والكون كله..

وما أُرسل الأنبياء كلهم إلا رحمة للعالمين أيضا..

ولا أنزلت الشرائع على الأنبياء إلا رحمة للعالمين كذلك..

وإذا تأملتَ الشرائع الإلهية وجدت ما فيها من تحقيق مصالح الخلق، تدل على أنها تنزيل من رب رحيم بعباده..

وإذا نظرت في أدلة صحة الرسالات، وجدتها تدل أيضا على وجود المرسِل سبحانه..

ولكن للحديث عن دلائل صحة الرسالات مقام آخر..

فلنؤجله الآن ولنرجع إلى الشرائع..

من أعظم الحجج الدالة على وجود الله، ما تتضمنه الشرائع التي جاء بها الرسل من كمال المصالح للأفراد والمجتمعات. والمقارنة بين هذه الشرائع وبين ما يتواضع عليه الناس من القوانين بعيدا عن إضاءة الوحي في القديم والحديث، يُظهر أن ما بعث به الرسل لا يمكن أن يكون من وضع البشر، بل هو من لدن حكيم خبير، هو خالق هذا الكون ومدبّره بما يصلحه.

وهذه الطريقة في الاستدلال، طريقة صحيحة نافعة، ولكن لا يحصل إدراكها إلا بعد تأمل كثير، واستقراء شامل، ومقارنة وافية بين مختلف الشرائع والقوانين. وليس ذلك متاحا لكل أحد، ولا هو مما يسهل اختصاره في كلمات معدودة في فصل صغير من كتاب، بل هو مما يصلح أن يكون مشروع عمر!

ويدخل في هذا الاستقراء أمور كثيرة، منها:

- تدبر الشرائع الإلهية، فروعا وأصولا، مع النظر في قواعد الفقه، ومقاصد التشريع، ومراعاتها أصول المصالح.
- قراءة القوانين الوضعية البشرية، قديمِها وحديثها، ومقارنة ذلك بالشرائع الربانية.
- تأمل تاريخ الحضارات الإنسانية، في صعودها وسفولها، والأسباب التشريعية الكامنة وراء ذلك، وتخصيص الحضارة العصرية المتحررة من الدين بمزيد بحث ونظر.

ولو شئنا الاشارة باختصار إلى خصوصيات التشريع الرباني التي تميزه عن الشرائع الوضعية في المحاور التالية، فيمكننا أن نجمع ذلك في أصول عظمى، منها:

- الاستيعاب والشمول: فلا يشذ عن هذا التشريع شيء متعلق بتنظيم الحقوق والالتزامات ومصالح الفرد والمجتمع، بحيث يدخل فيه جميع شُعب القانون المعروفة في كل القوانين البشرية، انطلاقا من علاقة الفرد بأسرته إلى أحكام القانون الدولي التي

تنظم علاقة الدولة الإسلامية بغيرها من الدول.

- المرونـة في التعامل مع الوقائـع المتجددة، بسـبب الثراء الكبير في الأصول التي تسـتمد الأحـكام منها، من نصوص الوحي إلى القياس والاستحسـان والمصالـح. وفي التراث الفقهي - خاصة في المذاهـب المعتنيـة بالنوازل وأحكام القضاء - كنوز تشـريعية عظيمة، تجمّعت بعد قرون من التأصيل والتفريع.
- التـوازن بين مصالـح الأفراد والمصالـح العامـة للمجتمعات، والتـوازن بيـن تحصيـل منافع الدنيـا والإعداد لثـواب الآخرة، والتوازن بين متطلبات الجسد واحتياجات النفس.
- الدقة في تشـييد منظومة الأحكام الشرعية، بحيث تراعى الفروق مهما كانت طفيفة، ويلحق النظير بنظيره دفعا للتناقض في التفريق بين المتماثلات.
- تجاوز الإطار الزماني والمكاني، ليكون التشريع الرباني صالحا في كل مـكان وزمان. فالأحكام - من حيـث هي - مبنية على التجرد من دوافع العصبية، والانقطاع عن وطأة الأعراف الخاصة.

وهنالك أصول أخرى كثيرة يصعب حصرها في هذه العجالة.

والمقصود: أن هذه الأمور لا تعرف إلا بالممارسة الطويلة، والاطلاع الواسـع على التشـريعات الربانية التي جاء بها الرسـل ومقارنتها بالقوانين الوضعيـة البشـرية؛ فيحصـل بذلك الجـزم بكـون تلك التشـريعات ليس مصدرها من الإنسان، وإنما من الخالق المدبر، سبحانه وتعالى.

.. فإذا هم فريقان يختصمون

وبعدُ..

أيها الحبيب..

ها قد أحلتُك على فطرتك، وعاتبتك لأنك تجاهلتها ردحا من الزمن، حتى احتجت إلى دليل على ما هو الدليل إلى كل شيء!

ثم تبرعتُ لك بأدلة من العقل السليم، والعلم الصافي.. مع أنني لم أحط بكل ما يمكن أن يقال، لكنني اكتفيت بالإشارة والإيقاظ، لعلك تنقذ نفسك من الوهدة التي أوقعتك فيها شكوكك!

فإلى متى تجحد البداهة، وتنكر الشمس المشرقة وأنت تشعر بدفئها على إهابك، وترى أشعتها تملأ الدنيا بضجيج النور؟!

إلى متى تطمئن إلى أقوامٍ رأسُ مالهم الشك.. ولا شيء غير الشك!

إلى متى تثق في أناسٍ صناعتُهم هدمُ ما استقر في فطرتك من الحق المبين، ثم هم لا يملكون أن يبنُوا بديلا عنه، لأنهم لا ينطلقون من علم بحقائق الأمور، وإنما هم يظنون!

وتأمل كيف ردّ القرآن الكريم على الذين انحرفت فطرهم، فأنكروا الخالق، وأن يكون لهم رب يفنيهم ويبعثهم، فحكى قولهم: ﴿ وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ ﴾ [الجاثية: 24]، ثم أردف ذلك بقوله سبحانه: ﴿ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [الجاثية: 24].

أي: ليس لهؤلاء دليل يرجعون إليه يمكن تسميته علمًا، لا من خبر ولا من عقل ولا من حس أو تجربة. وغاية أمرهم الشك والارتياب، واتباع الظنون الفاسدة.

وهذا توصيف دقيق لحال الملاحدة في كل زمان!

فإن مبنى الإلحاد على محاولة هدم الأديان، ونسف ما تحمله من الحقائق والقيم، مع العجز الكامل عن إقامة بناء معرفي وأخلاقي ثابت في نفسه، وسالم من الحيرة والاضطراب.

وقد ذكر القرآن الكريم أيضا - في سورة الشعراء - محاورة موسى عليه السلام لفرعون الذي يدّعي الربوبية. وفي ضمن هذه المناظرة إشارات للرد على بعض من فسدت فطرته في باب الربوبية، أو كابر فيه اتباعا لهواه.

نعم..

هم فريقان يختصمون:

فريق ملأ قلبَه اليقين، فأثمر على جوارحه عملا ينتفع به الناس، وتشرق به شمس الحضارة المثالية الجامعة بين قوة المادة وجلال الروح؛

وفريق أفعمت قلبَه الوساوس والشكوك، فهو متخبط فيها، يعيش للفناء، ويعمل لتحقيق رغبات المادة الجوفاء، المفرغة من عبق الروح!

فانظر مع من تكون..

إن الشك والتردد والحياد "اللاأدري" لا محل له في قضية خطيرة مثل هذه، هي أساس الوجود، ولبّ أبحاث العقائد والأديان، وما يتفرع عنها.

وإن كثيرا من الملحدين لا يجدون في حياة الإلحاد التي يعيشونها غير الحيرة الفكرية، والضيق النفسي، والضياع الأخلاقي، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: 122].

ويتوق كثير منهم إلى حياة الإيمان، التي يرون المؤمنين يعيشونها. وهي الحياة المفعمة بالاستقرار النفسي، والالتزام الأخلاقي المنضبط. فتكون هذه الرغبة دافعا إلى الإيمان الأوّلي «البراجماتي»، الذي يمكن تطويره فيما بعد نحو إيمان حقيقي.

ولا يمكنني أن أغفل هنا تجربة خاصة لأحد الأفاضل الذين أعرفهم معرفة شخصية.

كان يحدّث عن نفسه أنه كان في مرحلة من مراحل حياته مؤمنا بوجود الله، لا عن اقتناع عقلي ولكن لأن الإيمان - في نظره - مناسب له، وملائم للطمأنينة التي يرجو تحقيقها في حياته، ويفتقر إليها الملحد في معيشته المضطربة المتحيرة.

وكان يعبّر عن هذا بقوله بالفرنسية:

"Je crois parce que cela m'arrange de croire!"

أي: "أنا مؤمن لأن الإيمان يلائمني!"

ثم ما زال الرجل مستمرا في رحلته الإيمانية، خائضا غمار البحث عن الحقيقة، متنقلا من الإشارات الوجدانية إلى البراهين العقلية المحكمة، حتى صار يخبر عن نفسه بعد سنوات بأنه صار متمكنا من فهم الأدلة العقلية الدالة على وجود الله، والاقتناع التام بها في قرارة قلبه!

وما أكثر النفوس المتحيرة في زماننا هذا، التي تحتاج إلى مثل هذا النظر ـ على الأقل كحَلٍّ مبدئي وشفاء مرحلي، يمكن - بل يجب ـ تطويره فيما بعد نحو الإيمان الراسخ، المبنيِّ على أسس عقلية وعلمية ثابتة!

كما أن الحزم في هذا المجال هو الاحتياط، الذي لا يفرّط فيه إلا محروم..

وقد رُوي أن دهريًّا ناظر عليًّا رضي الله عنه في البعث، فقال علي: (يا هذا، إن كان الأمر كما أقولُ نجوتُ أنا وهلكتَ أنت، وإن كان كما تقول نَجَونا جميعا)[1]. أي أن الاحتياط يرجح كفة الإيمان بالبعث على كفة الكفر به.

ثم تذكر أخيرا - أيها الحبيب:

أن الدين هو الأصل..

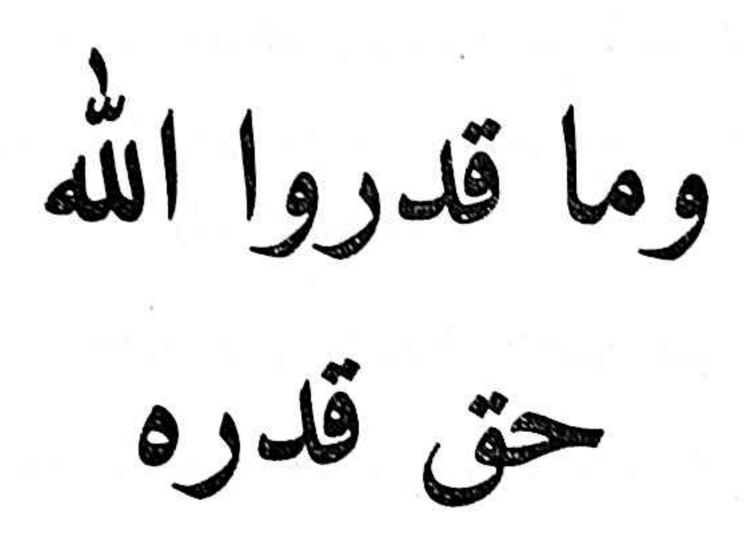
وأن الإيمان بوجود الله - وهو أول مدارج الدين - هو الأساس الذي صاحب الإنسانية في تاريخها الطويل، لأنه مقتضى الفطرة، وثمرة الاستدلال العقلي السليم.

وأن الإلحاد مرض طارئ على الإنسانية، بدأ ـ كما تبدأ الأمراض كلها - صغيرا محصورا، ثم انتشر في أجزاء الجسد الإنساني جميعها، كما تنتشر الآكلة في العضو المريض..

---

(1) نقله المعلمي في «رفع الاشتباه» ص 320، وقال المحقق «لم أعثر عليه». ونقل المعلمي أيضا أثرا في معنى قريب عن ابن عمرو وابن عباس. وقريب منه أيضا ما يعرف في الفلسفة الغربية بـ«رهان باسكال».

فاحذر الاستســلام لمرض قد يعييك شـفاؤه إذا استحكم في جسدك، وأبى الرحيل..



وما قدروا الله
حق قدره




أهل السنة مجموعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة، والإيمان بها وحملها على الحقيقة لا على المجاز، إلا أنهم لا يكيفون شيئا من ذلك ولا يحدون فيه صفة محصورة..

ابن عبد البر (التمهيد 145/7)

ولما كان التشريع وجميع الأحكام - شرعية كانت أو كونية قدرية - من خصائص الربوبية - كما دلت عليه الآيات المذكورة - كان كل من اتبع تشريعا غير تشريع الله قد اتخذ ذلك المشرع ربا، وأشركه مع الله.

محمد الأمين الشنقيطي (أضواء البيان 53/7)

والإيمان بالقدر خيره وشره حلوه ومره، وكل ذلك قد قدره الله ربنا، ومقادير الأمور بيده، ومصدرها عن قضائه، علم كل شيء قبل كونه، فجرى على قدره، لا يكون من عباده قول ولا عمل إلا وقد قضاه وسبق علمه به (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)، يضل من يشاء فيخذله بعدله، ويهدي من يشاء فيوفقه بفضله..)

ابن أبي زيد القيرواني (مقدمة الرسالة: 6)

﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾

وبعدُ - أيها الحبيب -:

ها قد وصلتُ معك إلى إثبات وجود الله..

فيا ترى: مَن هذا الرب الذي قد اتفقنا على وجوده؟ ما صفاته؟ ما أسماؤه؟ ما الذي يختص به عن غيره من المعبودات الباطلة التي يتفنن الناس في التوجه إليها بتعبداتهم؟

أدعوك - بعد أن حططتَ رحالك إثر سفرك الأول - إلى سفر جديد، ورحلة مثيرة، نحاول فيها الإجابة على هذه الأسئلة..

ولن تزال معي في سفرٍ يتلوه سفر، حتى نصل معًا إلى محطتنا الأخيرة التي نصبو إليها..

***

إذا كانت نصوص الوحي تثبت صفات الكمال لله ﷻ، فإن العقل الصريح يثبت ذلك أيضا على جهة الإجمال.

ومن الطرق العقلية المعتضدة بالوحي، لإثبات صفات الكمال لله تعالى: قياسُ الأولى.

والمراد به أن يقال: إن الخالق أولى بالكمال من المخلوق مطلقا، وذلك في جهتي النفي والإثبات معا.

ففي جهة النفي: كل نقص تنزه عنه المخلوق، فإنَّ تنزُّه الخالقِ عنه أولى.

وفي جهـة الإثبـات: كل كمـال لا نقص فيـه ثبت للمخلـوق، وأمكن اتصاف الخالق به، فالخالقُ أولى به.

وهـذا القياس الأولوي هـو الذي يمكن اسـتعماله في باب صفات الله تعالى، دون غيره من أنواع القياس.

فلا يمكن استعمال قياس التمثيل[1]لأنه يقتضي التمثيل والتسوية بين الأصل والفرع، والحال أنه لا مماثلة بين الخالق والمخلوق. كما لا يمكن استعمال قياس الشمول[2]، لأنه يستلزم التسوية بين الخالق والمخلوق، والله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: 11].

ويدل قياس الأولى على ثبوت صفات الكمال لله تعالى من وجهين:

الوجه الأول: الترجيح، ومعناه: أن كل كمال ثبت للمخلوق المحدَث الممكـن، يجـب إثباته للخالق المحـدِث الواجب، من بـاب أولى، بدليل الفطـرة والبداهـة العقلية؛ فـإن فطرتك وعقلـك معًا، لا يقبـلان أن يكون للمخلوق من الكمال ما ليس للخالق!

ومما يدل على ذلك من النصوص، قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الـروم: 27]. والمثل الأعلى مشـتمل على إثبات صفات الكمال المطلق، والتنزيه عن صفات النقص.

الوجه الثاني: دلالة الأثر على المُؤثر.

ومعنى ذلك: أن الذي يهـب الكمال ويعطيه ويفعله، أحق بأن يتصف

(1) وهو قياس العلة المعروف في المباحث الفقهية.

(2) وهو اجتماع الفرع المقيس والأصل المقيس عليه في قضية كلية يستوي أفرادها.

به من الموهوب الذي يُعطاه هذا الكمال.

فمـا في المخلوقـات من العلـم، يدل علـى أن الله أعلم. ومـا فيها من الحيـاة، يدل على اتصاف الله سـبحانه بالحياة الكاملـة. وما فيها من القوة، يدل على أن الله هو القوي، وهلمّ جرا.

وهـذا كلـه مما تقرّ به بَدَائِـهُ العقول، حتى إن جماعة من الفلاسـفة لم يخالفـوا في هـذا المعنى. فقد جـاء عن أفلاطون مثلا أن وجـود الكمال في الأشياء الموجودة بدرجات مختلفة، يقتضي بالضرورة وجود كائن يمتلك هذه الكمالات في درجتها العليا، وهو أحق بالكمال من الأشياء كلها. وهذا يعـد من ضمن أدلة وجود الله التي اسـتعملت في بعض الكتابات اللاهوتية النصرانية، وأصلها من الفلسفة القديمة.

والفـرق بين هذا الدليـل والذي قبلـه، أن الأحقية بالكمـال في الوجه الأول مـن جهة كون الخالق أفضل من المخلوق مطلقا. فهي أحقية متعلقة بالذات والأفعال عموما.

وأما الأحقية في هذا الوجه فمن جهة أن فاعل الكمال أحق بالاتصاف به. فهي متعلقة بفعل هذا الكمال خصوصا.

وهـذا الدليل خاص بالكمال، لا يتعداه إلى النقص. فمن المسـتقر في بديهة العقل، أن الذي يهب النقص لا يلزم أن يكون متصفا به. فالذي يقتل غيره لا يلزم أن يكون هو ميتا، والذي يجعل غيره عاجزا لا يلزم أن يتصف هو بالعجز، وهلم جرا.

وهنا يرد السؤال الذي لا بد معه من وقفة قصيرة:

ما ضابط صفات الكمال؟ وكيف نحترز من إثبات صفة لله، هي كمال في حق المخلوق، ولكنها - عند التأمل - نقص في حق الخالق؟

والجواب: أن المراد بصفة الكمال ما كان كمالا لذاته، أي بقطع النظر عن المتصف به، خالقا كان أو مخلوقا. ويتحقق ذلك بالنظر في هذا الوصف هل يستلزم ما ينافي صفات الكمال الثابتة لله تعالى أم لا؟

مثال ذلك: الولادة والنمو ليسا كمالا في حق الخالق، لأنهما يستلزمان إمكان العدم السابق، إذ لا يولد المولود إلا بعد أن لم يكن، ولا ينمو إلا بعد أن كان أقل نموا؛ فهاتان الصفتان تنافيان كمال وجوب الله وقيوميته. مع أنهما كمال في حق المخلوق، بحيث يعد المخلوق ناقصا إن فقدهما.

والنوم والطعام والنكاح كذلك ليسا كمالا في حق الخالق سبحانه، بل هما ممتنعان في حقه تعالى، لأنهما يستلزمان الحدوث والافتقار المنافيين للأولية والغنى. وهذه الأوصاف كمال في حق المخلوق، مَن فقدها كان ناقصا.

***

ومما يمكن الاستدلال به على صحة هذا الدليل العقلي، قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت: 15].

فبين الله تعالى أن عادا بلغ من استكبارهم في الأرض، أنهم ظنوا أنْ لا أحدَ أقوى منهم، وصرّحوا بذلك بقولهم: (من أشد منا قوة؟). فكان

الرد الإلهي عليهم واضحا، بالإرشاد إلى أن كل قوة لهم يتكبرون بها إنما مصدرها الله سبحانه، فهو خالقهم وواهب القوة لهم. فقوتهم إذن ليست ذاتية وَهَبُوها لأنفسهم، إذ هم مخلوقون مربوبون، وحين خُلقوا لم يكن لهم من الأمر شيء، ولا من القدرة ما يدفع به الواحد منهم عن نفسه أدنى أذى.

فالذي خلقهم أولى بالاتصاف بالقوة منهم.

وهذا الاستدلال واضح من قوله تعالى (الذي خلقهم). أي أن كونه خالقا لهم، هو الذي يجعله أولى بالاتصاف بالقوة منهم.

إذا تقرر هذا الأصل العقلي، فإننا نقرر أن لله إذن صفات الكمال المطلق..

ولا يمكننا أن نتصور الخالق المدبر المهيمن القدير، إلا منزها عن أمرين اثنين سبحانه وتعالى:

أولهما: النقص المناقض للكمال. فكل دليل دلّ على ثبوت الكمال له سبحانه، فهو يدل على تنزهه عن النقص المناقض لكماله. وهذا يبيّن أن تنزّهه عن النقص معلوم بالعقل أيضا، خلافا لزعم بعض المتكلمين إن ذلك لا يعلم إلا بالنقل.

والثاني: مشابهة المخلوقين في الصفات، فالله تعالى ليس كمثله شيء في صفات الكمال.

والقرآن الكريم مملوء بإثبات هذين الأصلين في مجال التنزيه، كما أنه

مملوء بإثبات صفات الكمال على وجه التفصيل.

ومع إثباتنا لهذا الأصل العقلي فنحن محتاجون إلى النقل عند التفصيل.

ومثال ذلك: أننا يمكننا إثبات العلو بالعقل لأنه مقتضى الكمال، لكن لا يمكننا إثبات الاستواء على العرش إلا بالنقل.

ودلالة النقل على الصفات الإلهية ترد من جهات مختلفة:

منها: تصريح نصوص الوحي بأسماء الصفات، كقوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: 166]، وقوله سبحانه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: 156]، وقوله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الذاريات: 58]، ومثل دعاء رسول الله ﷺ: (اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي) رواه أحمد والنسائي.

ومنها: ذكر الاسم المشتمل على الصفة، فإن الأسماء الحسنة تدل على صفات الكمال. فالعليم والقدير والسميع والبصير أسماء تدل على صفات العلم والقدرة والسمع والبصر.

ومنها: ذكر فعل يدل على الصفة، كقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: 5]، فهذا يدل على صفة الاستواء والعلو لله سبحانه.

لست أحب لك أن تخوض في نقاشات المتكلمين..

ولكنني أطلب منك أن تقرأ القرآن، وقد تركت خلافاتِهم وراء ظهرك..

وتدبر كلام الله تعالى، وهو يصف نفسه الكريمة بما يليق بها من الصفات والأفعال، وينزهها عما لا يلائمها من الصفات والأفعال..

تأمل مثلا قوله تعالى:

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: 67].

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [الأعراف: 54].

﴿ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ [الممتحنة: 13].

﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ [المائدة: 119].

ثم انظر إلى ما تجده في قلبك من الإيمان بعظمة الله وجلاله، ومن استشعار هيبة الخالق القدير وهو يحدّث المخلوق الفقير ببعض صفاته وأفعاله..

ثم اقرأ قوله ﷻ:

﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم: 65].

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: 1-4].

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: 11].

وأخبرني كيف أن جذور تشبيه الخالق بالمخلوق قد اجتُثت من قلبك، فلا تجد لها في كيانك أدنى أثر!

وهذه طريقة القرآن الذي لا يدانيه كلام بشر..

يثبت الحق حتى يرسخ في قلب المتدبر المصغي بقلبه لكلام ربه..

وينزع الباطل بقوارع صارمة واضحة، تخالط سويداء القلب، وتسري في أركان النفس..

ومن أحسن من الله قيلا..

إن معرفةَ صفات الخالق التفصيلية منحصرة في ما يخبر به الله عن نفسه، ومشروطةٌ بما قيده الله بها من التنزيه والتقديس.

فلا يجد القلب المؤمن أدنى حرج في أن يثبت لله ما أثبته لنفسه من الصفات، على الوجه اللائق به، دون تشبيه له بخلقه، ودون توهم كيفية لصفاته..

وإنما هو إثبات دون تكييف ولا تمثيل..

ودون تحريف ولا تعطيل..

تعالى الله وتقدس..

ولله الأسماء الحسنى ..

بلغت من الحسن الغايةَ التي ليس بعدها غاية..

وكيف لا تكون كذلك، وهي أسماء مَن يُعطي الحُسن، ويهب الجمال، ويمنح الكمال؟!

فهي أسماء حسنى تضمنت صفات كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه..

فاسم (العليم) مثلا يتضمن علم الله الكامل الشامل، الذي أحاط بكل شيء: ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [التغابن: 4]، ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: 59]. وهو العلم الذي لم يسبقه جهل، ولا يلحقه سهو ولا نسيان: ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ [طه: 52].

واسم (الرحمن) متضمن للرحمة الكاملة الواسعة التي قال الله عنها: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ ﴾ [الأعراف: 156]، وقال عن دعاء الملائكة: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر: 7].

واسم «الحي» يتضمن الحياة الكاملة، التي تستلزم صفات الكمال كالعلم والقدرة وغيرهما، لأن الحياة لا تكون كاملة إلا مع صفات الكمال.. ثم هي حياة لم يسبقها العدم، ولا يأتي بعده العدم.

جل الله تعالى عن جميع أنواع النقص..

وقد يكون الحسن في اقتران اسمين، كما يوجد حال انفرادهما..

فالله تعالى يقرن كثيرا في كتابه العزيز، بين اسمي «العزيز» و»الحكيم»، وذلك لأن كل واحد منهما يدل على كمال خاص، هو العزة في «العزيز»، والحكمة في «الحكيم»؛ ثم إن الجمع بينهما يدل على كمالٍ آخر، هو أن عزته سبحانه تقترن بالحكمة، بخلاف عزة المخلوق التي لا تخلو من بطش وظلم؛ وكذلك حكمته سبحانه تقترن بالعزة، بخلاف حكمة المخلوقين فإنها قد تشتمل على المذلة والضعف.

ولأن الله تعالى أعلم بنفسه، فإننا لا نستطيع أن نثبت لله أسماءً بمحض العقل، بل لا بد من أن نقف على ما جاء في الكتاب والسنة، لا نزيد عليهما ولا ننقص.

إن العقل يمكنه أن يعرف استحقاق الله تعالى للكمال، أما تفصيل ذلك، وما ينبني عليه من الأسماء، فأمر توقيفي لا مجال للعقل فيه؛ وإلا كان ذلك من القول على الله بغير علم!

ونعوذ بالله تعالى أن نقول عليه بغير علم:

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: 33].

إن الواجب الاقتصار في هذا الباب على ما جاء في النصوص، لأن

تسـميته سـبحانه بما لم يُسَمِّ به نفسه غلط لا يقلّ عن غلط إنكار ما سمى به نفسه من الأسماء.

وقد ذكرت في القرآن والسنة أسماء حسنى كثيرة، مع علمنا بأن أسماء الله تعالـى غيرُ محصـورة في عدد معين لما جـاء في الدعاء النبـوي المعروف: (أسـألك بكل اسم هو لك، سميتَ به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحـدا من خلقك، أو اسـتأثرت به في علم الغيب عنـدك) رواه أحمد. فمن الأسـماء ما اسـتأثر الله تعالى به في علم الغيب عنده، فكيف يدّعي الإحاطة بها أحد من البشر؟!

ولا يشـكل علـى هـذا ما جـاء في الحديـث الصحيـح: (إن لله تسـعة وتسـعين اسـما، مائة إلا واحدًا، مـن أحصاهادخل الجنـة) رواه البخاري ومسلم؛ لأن الحديث لا يدل على حصر الأسماء في هذا العدد، وإنما معناه أن من أسمائه تسعة وتسعين اسما، تختص بأن من أحصاها دخل الجنة.

وقد اجتهد العلماء في اسـتخراج أسـماء الله تعالى من الكتاب والسنة، فاتفقوا على كثير منها، واختلفوا في بعضها.

وما أجمل أن يسـتمتع المتدبر لكتاب الله وسـنة رسوله- حال تلاوته- بنور الأسماء الحسنى المذكورة فيهما..

ألا له الخلق والأمر ..

خلق الله سبحانه الكون كله..

خلق الكواكب والنجوم والمجرات..

وخلق الجبال والأشجار والأنهار والبحار..

وخلق الحيوانات على اختلاف أشكالها..

وخلق الإنسان بما يحمله من ذكاء وعقل وقدرة على التفكير والتصرف في ما يحيط به..

ولم يترك اللهُ هذه المخلوقات العظيمة سدى، بعد خلقها..

بل دبرها أحسن تدبير، وأحاطها بعنايته ولطفه..

فصار الكون بحسن تدبير الرب سبحانه: في أعظم ما يكون عليه من التناسق والانسجام، والترتيب والجمال..

يعلم ذلك من تأمله بعين بصيرته، فرأى عظمة الخالق المدبر في عظمة الكون وبهائه ودقة تناسقه..

ثم إن الله تعالى كرّم الإنسان من بين المخلوقات كلها، فسخر له ما في الأرض جميعا، وخصّه بحمل أمانة إعمار الأرض، على وفق مراد الله سبحانه..

فلأجل ذلك أرسل إليه الرسل بالشرائع المحكمة، ليبينوا له الصراط المستقيم الذي يتحقق به حملُه هذه الأمانة.

فالله تعالي له الخلق..

والله تعالى له الأمر الكوني الذي به تدبير السماوات والأرض..

والله تعالى له الأمر الشرعي، الذي يجب على الناس الالتزام به، إن أرادوا صلاح الدنيا والآخرة.

﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: 54].

فيا أيها الحبيب..

تأمل في ما سألقيه عليك، وأَصِخْ له بسمع قلبك، فإن الآذان تسمع هذا الكلام كثيرا، ولكنها لا تكاد تستشعر خطورته..

أليس الله تعالى هو الذي خلقك، وخلق آباءك وأبناءك، وخلق المفكرين والفلاسفة، وخلق السياسيين والعلماء، وخلق الناس أجمعين؟!

أفلا يكون خالق الناس، أعلمَ بأحوالهم، وبما يصلحون عليه، وما يفسدون به، من أي أحد من الناس، كائنا من كان؟!

كيف تؤمن بالله الخالق المدبر، ولا تقر له بحق تشريع القوانين التي يجب أن يسير عليها البشر؟

أليس مَن خلق أعلم بما يصلح عليه المخلوق؟!

كيف تطلب صلاح الأفراد والمجتمعات والدول، من أفكار الناس وتجاربهم القاصرة، ولا تلتمسها في شرائع الحكيم الخبير، الذي لا يغيب عن حكمته شيء، ولا يعزب عن علمه مقدار ذرة في السموات والأرض؟!

إن الانسجام التام بين أفعال الناس، وحركات هذا الكون الفسيح، لا تتم إلا إن كانت أفعالهم على وفق حكم الله، كما أن حركات الكون هي على وفق قضاء الله وتدبيره.

وعبثا يحاول الحمقى من الناس أن يفصلوا بين الطريقين، فيخترعون أحكاما يسيرون عليها، تخالف حكم الله، وهم يعلمون علم اليقين أن الكون كله خاضع لتدبير العزيز الحكيم.

اللهُ الذي خلق:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة: 29].

والله الذي يرزق:

﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: 6].

والله الذي يملك:

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [آل عمران: 189].

فالله الذي يحكم:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: 50].

نعم، أيها الحبيب..

إن التشريع حق خالص لله وحده، والتحليل والتحريم ملك لله، لا ينبغي أن ينازعه فيه أحد من البشر:

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى: 21].

فسمى الله تعالى الذين يشرعون من الدين ما لم يأذن به الله شركاء، كما أنه في آيات أخرى سمّى الذين يُدعَون ويُعبدون من دون الله شركاء..

فأساس الدين الذي جاء به محمد ﷺ:

- أن يعبد الله وحده بأنواع الطقوس التعبدية، وألا يشرك معه غيره في هذه العبادة.
- أن تحكّم شريعته، ولا يؤخذ التحليل والتحريم إلا من كتابه، وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام.

والذي يترك حكم الله، فإنما يرضى بحكم الجاهلية!

ولا وجه للمقارنة بين الحكمين، كما لا يقارن النور بسدفة الظلام، ولا قمم الجبال بتراب الحُفَر..

ولكن الأمر قد يخفى على من لم يترع اليقينُ قلبه:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: 50].

وهذا الذي استبدل بحكم الله حكمَ الجاهلية، مستحق لأشنع الأوصاف:

وصف الكفر: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: 44].

ووصف الظلم: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: 45].

ووصف الفسق: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: 47].

وحقيقة الإيمان بالله لا تجتمع مع كراهة حكم الله، أو الحرج من قضائه الشرعي؛ بل لا تكون إلا مع تمام الرضا وكمال التسليم:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: 65].

وإذا كان الاختلاف طبيعة في البشر، وسنة كونية مطردة فيهم، فإن المتعيّن عليهم - إن كانوا حقا يؤمنون بالله الخالق المدبر - أن يرجعوا عند الاختلاف إلى قضاء الله وحكمه، ليجدوا في ذلك نعيم الاتفاق، وسعادة التماهي مع تدبير الله للكون:

﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [الشورى: 10].

وصدق الله إذ قال:

﴿ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران: 154]..

وصدق الله إذ قال:

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ [آل عمران: 109].

﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾

هذه الغاية العظمى من خلق الإنسان..

والرابط الأسمى الذي يربطه بالخالق، ويرفعه عن البشرية المادية..

ولولا تنسم رَوْحِها لَحَالَ اليأسُ بين ابن الماء والطين وبين الوصول إلى رب العالمين!

بل لولا جمال العبادة، وحلاوة ما فيها من الخضوع لمالك الملك سبحانه، لأوشك الناس أن يكونوا كالأنعام التي تأكل وتشرب وتتناسل، ولا تعرف من الحياة إلا عيشا ماديا خالصا!

وما ألذ تلك اللحظات التي يخلع فيها الإنسان غلافه المادي، وينفصل عن الروابط التي تنزل به إلى الحضيض الأرضي، ثم يقبل على رب الكون، وينطرح بين يديه، شاكيا داعيا مناجيا، فيجد من أثر الإجابة ما يشفي به أسقام نفسه، وأمراض قلبه..

فواعجبا لمن يضيّعُ على نفسه هذه اللذة التي لا يعدلها شيء من ملاذ الدنيا، لأجل احتمال عقلي، أو شبهة فكرية..

وستأتيك بهارج الدنيا تتلألأ أمام عينيك، لتغريك بالحرص عليها..

وتأتيك ملذات الجسد تستحث غرائزك الباطنة، وتجرك من تلابيبك لتلقي بك في حمأة البهيمية..

ويأتيك شياطين الإنس والجن يزينون لك أن تعيش لجسدك أولا، ولجسدك آخرا، كأنك خلقت جسدا دون روح..

فها أنت ذا بين طريقين، على كل منهما داعية يناديك..

داعية يطلب منك التمسك بأذيال العبودية لبارئك، ويعِدك على ذلك بطمأنينة العيش في الدنيا، وسعادة الخلود في الآخرة..

وداعية يحرضك على التملص من قيود العبودية، والتمتع بالدنيا الفانية، ثم هو يعدك على ذلك بلذة تقارن الفعل، ولا تزيد عليه، ثم يعقبها ألم وحسرة، وظلمة في القلب، ونكد في العيش، ثم.. موت هو فناء محض..

فيا ترى..

أي الداعيتين أولى بالإجابة؟

وإن كنت في هذا الاختيار، لا تُعمل عقلك، ولا تُحكم النظر والتفكر، بل تستسلم لنزواتك الطارئة، ورغباتك الجسدية الجامحة، فقل لي: ما الفرق بينك وبين البهيمة التي تقاد بغرائزها؟!

❊ ❊ ❊

ثم إنك لو حققت النظر لوجدت أن هنالك معيارا آخر ينبغي اعتباره عند الاختيار، وهو أن الإسلام دين موافق للفطرة الإنسانية، ويراعي الاعتدالَ بين رغبات الجسد ومتطلبات الروح. ولذلك فإن تحقيق العبودية في الإسلام لا ينفي الاستجابة لمطالب الجسد، ولا يعني طغيان الجوانب الروحية إلى درجة إهمال النصيب الدنيوي البشري الذي لا ينفك الإنسان عنه..

لكنهـا اسـتجابة مقيدة مشـروطة، تلبي الحاجة الجسـدية، في الحدود التي لا تجعل منها غاية في نفسها..

ثم يزيد عليها لذة أخرى، هي لذة معنوية روحية، يعرفها من ذاقها..

هي لذة الهجرة إلى الله..

والفرار إلى الله..

والاستظلال في أفياء محبة الله وعبوديته..

ومـا يزال العبد يتذوق من حـلاوة العبودية عللا بعد نهل، حتى يصبح هوى نفسـه في محاب الله، ومتعة قلبه في مرضاة الله، وأعظم سـعادته في أن يستعمل نفسه في التزام أمر الله واجتناب نهيه..

وذلك مقام سامق..

لكنه ليس محالا.. لولا شدة العلائق الأرضية، وكثرة المثبطين..

***

والعبادة تجمع كمال الحب مع كمال الذل، مع كمال الانقياد لمراد الله تعالى..

فمـن ادعى الحب، لكـنْ بقي قلبه مقيما على التكـبر على خالقه: فما عبد الله حقا!

ومن حقق الحب والذل معا، لكنه لم يسـلّم قياده لمولاه: فما عبد الله صدقا!

وإنمـا هو حب يملأ شـغاف القلـب، وذل ينكسـر به العبـد بين يدي

الرب، يفيضان على أركان البدن انقيادا وخضوعا وتسليما..

هذه العبادة هي الغاية التي ليس بعدها غاية..

وفي الوقت الذي تنطلق فيه الفلسفات الغربية الحداثية من الإنسان، وتجعله مركز الكون، وتقرر انعتاقه من كل القيود الأرضية والسماوية، وتجعل ذلك الغاية العليا التي إذا وصل الإنسان إليها حقق سعادته في الحياة؛ فإننا نقرر مطمئنين أن أعلى مقامات الإنسان أن يكون عبدا لله..

فالله تعالى سمى سيدَ الأنبياء "عبدا"، ونسبه إلى ذاته العلية، حين كان في أعلى المقامات البشرية، وفي أقرب أحواله إلى ربه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: 1].

فمن أراد المجدَ الذي تقصر الأمجادُ الدنيوية كلها عنه، فليحقق العبودية لله..

ومن أراد القرب من الله، قربَ معرفة بالله ورضوان من الله، فليحقق العبودية لله..

وفي دين الإسلام: لا تنحصر العبادة في الشعائر النسكية، بل تشمل كل ما يتقرب العبد به إلى ربه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة..

فمن العبادة: الدعاء والذكر وتلاوة القرآن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله..

ومن العبادة: الحب والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والتعظيم، وسلامة الصدر للمسلمين وترك الكبر والحقد والحسد..

ومن العبادة: السجود والركوع والطواف والنذر والاستعانة، وحسن الخلق وبر الوالدين وصلة الرحم والوفاء بالعهد والإحسان والجهاد..

فهي بذلك تعمّ كل ما يرضي الله تعالى..

ولأن الغرض منها التقرب إلى الله وتحقيق رضاه، فلا معنى لأن يصرف شيء منها لغير الله تعالى!

فالواجب إذن صرف العبادة لمن يستحقها، وهو المعبود الحق: «الله رب الكون»..

والواجب أيضا منعها عمن لا يستحقها، وهي المعبودات الباطلة، التي يعبدها المشركون من دون الله..

وهذا معنى: إفراد الله بالعبادة!

وهو معنى كلمة: «لا إله إلا الله»، فإن شقها الأول «لا إله» ينفي المعبودات كلها (إذ «الإله» هو «المألوه»، ومعناه «المعبود»)، وشقها الثاني يثبت المعبود الحق وهو الله سبحانه.

فحين تنطق بكلمة الإخلاص «لا إله إلا الله»، فإنك تثبت استحقاق الله تعالى لأن يعبد، وتنفي استحقاق غيره من المعبودات الباطلة..

وبهذا المعنى بُعثت الرسل، وأنزلت الكتب: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: 36].

ولتحقيق هذا المعنى خلقت السماوات والأرض، وخلق الإنسان، وشرعت الشرائع، وخلقت الجنة والنار، وقام سوق الثواب والعقاب..

فتأمل هذه الكلمة العظيمة، وتدبر معناها، وافهم سبب كونها مفتاح الإسلام..

ومن مقتضى إفراد الله بالعبادة: الحب في الله والبغض في الله..

فإنك لا تعبد الله إلا وأنت تحبه..

ولا تحبه إلا وأنت تحب من يحبه، وتبغض من يبغضه..

فعبوديتك لله تقتضي: أن تحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه وعموم المسلمين..

وتقتضي أيضا: أن تبغض شياطين الإنس والجن الذين يصدون عن سبيل الله، والطواغيت التي تعبد من دون الله، وتتبرأ من المعبودات الباطلة وممن يعبدها: كما قال تعالى ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة: 4].

فهي عبودية محو وإثبات:

محو لمحبة ما سوى الله سبحانه من القلب..

وإثبات لمحبة الله، وما تستلزمه من القيام بأمره ونهيه، ومحبة ما يحبه، وكراهة ما يكرهه، وموالاة من يواليه، ومعاداة من يعاديه..

وكل شيء خلقناه بقدر

قررتُ لك سابقا - وأحسبك وافقتَني في ما قررتُه - أن ربَّنا سبحانه متصف بصفات الكمال المطلق، وأن قدرته كاملة شاملة، فلا يعجزه شيء سبحانه..

علمه أحاط بكل شيء..

وهو خالق كل شيء..

ولا يقع في الكون شيء إلا بإرادته ومشيئته..

وكل ذلك - وغيره مما لا يخفى على من يعظّم ربه - يستلزم عموم التقدير الإلهي، لأنه مقتضى كمال الله وشمول قدرته.

أما القول بعدم التقدير، فيقتضي أن يكون في الكون ما لا يريده الله أن يكون!

وهذا عجز يتنزه ربنا عنه..

تعالى وتقدس..

وفوق هذه الدلالة العقلية، فقد دل على هذا الأصل نصوص كثيرة من الوحي.

من أظهرها قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: 49]، ويضاف إليها الأدلة التي ستأتي في سياق بيان مراتب التقدير.

وذلـك أن لعموم التقديـر الإلهي مراتب، لا يتحقـق الإيمان بالكمال الإلهي إلا بالإيمان بها:

أولاهـا: إثبات علم الله الأزلي بكل شـيء، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق: 12].

والثانية: تعرف بالوحي، وهي إثبات كتابة الله لجميع الأشياء في اللوح المحفـوظ؛ ودليلهـا قولـه تعالـى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديـد: 22]، وقولـه سـبحانه: ﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمـل: 75]، وقـول النبـي ﷺ: (كتـب الله مقاديـر الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة) رواه مسلم.

والثالثـة: إثبـات مشـيئة الله النافذة التـي لا يردها شـيء، وقدرته التي لا يعجزها شـيء: ما شـاء الله كان وما لـم يشـأ لم يكن. وأدلـة هذه المرتبة في القـرآن الكريـم كثيـرة جـدا، منهـا: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [التكويـر: 29]، ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعـام: 39]، ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس: 99]..

والرابعـة: إثبات خلـق الله تعالى للأشـياء كلها، ومُوجدهـا من عدم، كمـا قال تعالـى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الزمـر: 62]، ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: 96]..

وإذا كان الله تعالى خالق كل شيء، فهل يخلق المعاصي أيضا؟

وبين يدي الجواب، لا بد من التذكير بأن الله تعالى عدل، لا يظلم أحدا مثقال ذرة: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: 46]. وذلك أنه سبحانه غني عن خلقه أجمعين، لا تزيده طاعتهم، ولا تنقصه معصيتهم، وله المنة والفضل عليهم في الأحوال كلها. ومن كان كذلك، فلأي شيء يظلمهم؟!

إن للعبد في الإسلام مشيئة بها يؤمن ويكفر، ويطيع ويعصى، وعليها يكون حسابه أمام ربه سبحانه، بعد أن بين له الطريق، وأرسل له الرسل، وأنزل له الكتب..

وهو في ذلك كله لا يخرج عن علم الله وتقديره..

فالله سبحانه يعلم ما سيكون عليه العبد..

وفعلُ العبد واختياره لا يخرج عن خلق الله وتقديره، فإنه لا يقع شيء في الكون إلا بخلق الله..

ولا يفعل الله إلا ما هو صريح العدل، فإنه سبحانه لم يظلم الشقي العاصي، بل أعطاه المهلة الكافية والقدرة على الاختيار وعلى الفعل الصحيح، وأرشده إلى الطريق السليم، والصراط المستقيم، ورغّبه فيه، وحذره من سبل الضلالة، وقيض له من وسائل التذكير والنذارة، من المصائب والابتلاءات ليتوب وينيب، ما قطع به حجته..

فإذا هو - بعد ذلك - اختار طريق الغواية والضلال، وتنكب طريق الهداية والخير، فإنما أهلك نفسه، واستحق العقوبة: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ

﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 117]، ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: 70].

وإنما يقع اللبس في فهم هذه المعاني، عند من يقيس أفعال الخالق، على أحوال المخلوقين في ما يكون بينهم من التعاملات، وأما من استحضر معنى كمال العدل الإلهي وكمال القدرة الإلهية، فإنه يسهل عليه فهم ما يعجز عن فهم نظيره لو كان ذلك بين المخلوقين!

وقد يخطر ببال بعض الناس في هذا المقام سؤال عن سبب وجود الشرور في هذا الكون..

فيقول بعضهم إن الله تعالى لَمْ يخلق تلك الشرور، لأن الخالق ذو طبيعة خيّرة تتنافى مع خلق الشر!

ويقول آخرون إنه سبحانه خلقها، مع تفسير وجه عدم منافاة ذلك لصفات الكمال التي يتصف بها الخالق سبحانه.

وتغلو طائفة ثالثة في إنكار ما لا سبيل إلى إنكاره، فيلتزمون عدم وجود الإله الخالق، دفعا لما توهموه من التناقض في هذا الأمر.

فالأولون أثبتوا وجود الله تعالى، لكنهم أثبتوا عليه النقص والعجز، فكان خللهم في باب الصفات.

وأصحاب الاعتقاد الثالث، نفوا وجود الله سبحانه، فكان الخلل عندهم في باب إثبات الذات.

وتوسطت الطائفة الثانية، وهي التي تضم جماهير المتدينين، فأثبتت الذات، ونسبت للخالق سبحانه ما يليق به من صفات الكمال ونعوت الجلال، وفسرت التناقض الظاهر بما يدفع تناقضه، ويقرر انسجامه مع صريح العقل وصحيح النقل.

ولعل جزءا كبيرا من المشكلة يكمن في أن بعض الناس يطبق قواعد الطبيعة المحسوسة على عالم ما وراء الطبيعة، ويقيس الغائب على الشاهد - كما يقول علماؤنا المتقدمون! وكثير من الملاحدة الماديين لا يستطيعون التخلص من قواعد الحس، حتى في أبحاثهم الميتافيزيقية، على الرغم من أنهم أكثر الناس نقدا للتصورات المشهورة في الديانات السماوية للإله واليوم الآخر، من جهة التصاقها بالمفاهيم المحسوسة - فيما يزعمون!

ومما ينبغي تقريره هنا أن من أُسس الإشكال: المبالغة في تقدير قيمة اللذة المادية وما تستتبعه من الشعور بالسعادة، وفي ما يقابل ذلك من الألم والشقاء. وهذه النظرة المبالغ فيها تؤدي إلى استشكال كثرة الشرور الموجودة في الكون، وعدم التفطن إلى ما يحيط بذلك من التكامل بين الخير والشر، وما يحصل جراء ذلك من الرضا النفسي.

وبعبارة أخرى، فينبغي أن يكون المعيار قيمة معنوية لا منفعة مادية. والمعيارُ المعنوي ينظر إلى تدبير الله تعالى وحكمته في ما يكون من وراء الشر والألم، لا في الشرور والآلام في ذاتها.

والملحد- في أغلب الأحيان - ينظر إلى الشر المعيّن بقطع النظر

عما يحيط به، ويشكل تكاملا عاما في الزمان والمكان. وخذ هذا المثال لتوضيح القضية: حين يمرض الملحد فإنه لا يرى إلا جانب الألم في مرضه، وأما المؤمن فيرى جوانب أخرى لا تقل أهمية عن جانب الألم، وقد يكون منها: تقوية مناعة الجسم في مواجهة أمراض أقوى من المرض الراهن، والشعور بتقدير نعمة الصحة بعد الشفاء وتحقق الالتذاذ بها أكثر، والتمتع بمحبة الإخوان والأصدقاء وتعاطفهم حال الابتلاء، والفائدة المادية الراجعة على الطبيب والصيدلي، إلى غير ذلك من المعاني.

والتصور الإسلامي يتميز بنظرة متكاملة إلى ما يسميه أهل الفلسفة الخير والشر.

ومن تكامل النظرة وجوب اعتبار اليوم الآخر، وعدم الاقتصار على الحياة الدنيا، وألا تدرس مسألة الشر باستقلال عن قضايا العقيدة الأخرى، خاصة ما ثبت يقينا بالأدلة العقلية والكونية والشرعية من أصول المعتقد، مثل وجود الله تعالى، وانتفاء صفة الظلم عنه.

فالأصل الراسخ المتقرر بالبرهان العقلي الضروري والدليل الشرعي القطعي أن الله تعالى لا يفعل الظلم، ولا يتصور ذلك في حقه سبحانه. فمهما وجدنا صورة مخصوصة من الشر الواقع على بعض المخلوقات، أحلناها على هذا الأصل، فجزمنا بأن هذه الصورة لا ظلم فيها، وأن الله تعالى ما خلقها إلا لحكمة، سواء أعلمناها أم غابت عن أذهاننا.

ومع ذلك، فقد بحث علماء الشريعة عن حكم كثيرة مختلفة لوجود "الشرور"، منها:

- الدنيا دار عمل واختبار وابتلاء، ومن لوازم ذلك أن يخلق الله تعالى الخير والشر، كما قال تعالى ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: 35].

- الخير يُعرف بضده، فلا تعلم نعمة الخير إلا بشَرٍّ فَقْدها. فلا سبيل إلى معرفة نعمة التوحيد إلا بمعرفة شرور الشرك، ولا الصحة إلا بالمرض، ولا الغنى إلا بالفقر، وهلم جرا. وعموما فالخير والشر ثنائية، لا يتصور أحد طرفيها دون الآخر. والخير هو الغالب في الكون، واللذات أكثر - إحصائيا - من الآلام، وإن تصور بعض الناس عكس ذلك لأسباب نفسية. فمقتضى النظر الصحيح أن انعدام هذا الخير الكثير لأجل ما يلابسه من الشر القليل، شرٌّ في ذاته.

- الشر قد يكون أصلح للإنسان في بعض الأحوال من الخير، فإن الإنسان قد يطغيه ما هو فيه من الملذات، كما قال الله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق: 6-7]. وبالمقابل، فإن الابتلاء قد يحمل صاحبه على السعي للإصلاح ومراجعة النفس.

- من مقتضيات أسماء الله تعالى وصفاته وجودُ الخير والشر. فكون الله تعالى غفورا رحيما، يقتضي وجود المذنبين الذين يرتكبون الشرور ويطلبون مغفرة الله. وكونه سبحانه منتقما جبارا يقتضي وجود الظالمين الذين يستحقون انتقام الله منهم، وهلم جرا.

- ويلتحق بما سبق أن من كمال ربوبية الله سبحانه أن يكون خالقا لكل شيء، من خير أو شر. ومن كمال قدرته أن يكون سبحانه قادرا على خلق الشيء وضده. فهو يخلق الخير ويصرفه كيف يشاء، ويخلق الشر ويصرّفه أيضا كيف يشاء.

- الشر يلطّف بعضه بعضا، فيسلط الله بعض الظالمين على بعض، وينتقم من شر بشر آخر، فتكون المحصلة النهائية خيرا لأهل الخير. كما قال رسول الله ﷺ: (إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر) رواه البخاري ومسلم.

- إن لكل شرٍّ وجها من الخير يلازمه، ـ كما سبق بيان ذلك ـ فالمرض يخلّف مناعة، والألم ينمّي التحمّل، والزلازل تنفس عن الضغط الموجود داخل الكرة الأرضية، فتحميها من الانفجار، وأعظم الاختراعات النافعة خرجت من حاجات الجيوش خلال الحروب المدمرة، وموت أسلافنا هو الذي بوّأنا أماكنهم ومناصبهم، وهكذا دواليك.

- أراد الله لعباده حرية الإرادة، وهي تقتضي الخطأ، "وكان في قدرة الله أن يجعلنا أخيارا، وذلك بأن يقهرنا جميعا على الطاعة قهرا.. وكان ذلك يقتضي أن يسلبنا حرية الاختيار. وفي دستور الله وسنته أن الحرية مع الألم أكرم للإنسان من العبودية مع السعادة.. ولهذا تركنا نخطئ ونتألم ونتعلم، وهذه هي الحكمة في سماحه بالشر"(1).

إلى غير ذلك من الحِكم التي نص عليها جماعة من علماء الشريعة..

---

(1) حوار مع صديقي الملحد، مصطفى محمود، ص. 25.

رسلا مبشرين ومنذرين

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾

[النحل: 43]

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (.. ولا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين)

رواه البخاري ومسلم

ويا من يداوي بالكلام قلبه الكليم، لا تعدِل عن المرهم الذي صنعه الحكيم، لخليله إبراهيم، وهو النظر في المعجزات، المعلوم حدوثها، وأنه لا بد لها من محدث مختار، بالعلوم الضروريات، عند النظر بالفطرة الأولى والإخبات، والخلوص من شوائب العادات. فإن تعذر ذلك - بهذه الطريقة، وما قدمناه من النظر في كتاب الله، وقرائن أحوال أنبياء الله - فليس لليقين - بعد ذلك - إلا اللجوء والتضرع إلى الله أن يهبه من عنده، ويشرح له صدر عبده.

ابن الوزير (العواصم والقواصم 1/ 213)

﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا ﴾

ها قد وصلتَ معي - أيها الحبيب - إلى محطة ثالثة، في رحلتنا الرائقة المثيرة..

وقد كانت محطتنا الأولى في تثبيت الفطرة الإنسانية التي تصرخ بوجود الله الخالق البارئ..

وكانت المحطة الثانية في بيان ربوبية الخالق، وحصر ما تقتضيه تلك الربوبية من عبادة، يتوجه بها المخلوق إلى خالقه..

وفي هذه المحطة أيضا: التعرف إلى هذا الخالق ببيان بعض صفاته وأسمائه..

ومن صفات كماله ﷻ: حكمته البالغة، ورحمته الواسعة..

وكلتاهما تقتضي إرسال المرسلين إلى عموم الناس، ليقوموا بواجب البلاغ، ويضطلعوا بأمانة البيان والإرشاد.

قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: 91]. أي: ما عظموا الله حق تعظيمه، حين كذبوا رسله إليهم.. فتصديق الرسل، نابع من تعظيم المرسِل - سبحانه..

وقال تعالى: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الدخان: 5-6].

فإرسال الرسل من رحمة الله بعباده، وهو برهان عظمة الله وتمام حكمته.

ولمزيد تقرير هذا المعنى بالنظر العقلي، كلماتٌ أرصفها الآن بين يديك..

وأول ما أبدأ به: أن أقرر لك أن تكليف البشر واجب من حيث هو، أي بقطع النظر عن طريقه: سواء أكان بإرسال الرسل أم بغير ذلك؟

وبيان هذا الوجوب: أننا لو قلنا بأن الخالق سبحانه لم يكلف أحدا من الخلق أصلا، للزمنا القول بأن الله تعالى يبيح القبائح والمنكرات جميعها!

وهذا محال، إذ يلزم منه أن الخالق يبيح ما ثبت قبحه في صريح العقل عند جميع طوائف البشر، كالظلم والكذب ونحوهما. وهذا ينافي ما ثبت من كمال حكمة الخالق ورحمته بعباده.

وقد يسأل سائل هنا فيقول:

ألا يمكن أن يكون تحريم هذه الأمور مما يعرفه البشر دون حاجة إلى تكليف من الله تعالى، وذلك لأن البشر قادرون على تمييز الخير من الشر، ويمكنهم أن يوجدوا منظومة قيم متكاملة غير مرتبطة بالدين، كما يدّعي ذلك جماعة من الملاحدة؟

وجواب هذا السؤال من وجهين:

أولهما: أن العقل البشري لا يستطيع معرفة كل قبح، وإنما غايته

تمييـز بعض القبائح، لكنه قاصر عن تصور المفاسـد المركبة لأكثر القبائح الأخرى.

والجواب الثاني: أن البحث هنا هو في سـؤال: هل الله تعالى يبيح هذه الأمـور أو لا يبيحهـا؟ فإذا لم يكلّف الله البشـرَ بترك القبيـح، فمعنى ذلك - بعبارة أخرى - أنه يبيحه لهم. وهو أمر ممتنع.

ثم لو فرضنا عدم وجود التكليف، فإن مزية الإيمان والطاعة والخير لا تظهر! وذلك أنه لا معنى للذة الحاصلة بأنواع الخير المختلفة دون احتمال وجود أنواع الشر المقابلة لها!

فـأي معنى للتقوى والورع والزهد، وأي مزية للأتقياء والزهاد والعباد إذا لم يوجد التكليف، وكان البشـر جميعهم - كحال الملائكة - على مرتبة واحدة من عبادة الله تعالى؟

وما متعة العيش دون تمييز - في العمل والجزاء - بين أولياء الله وأعدائه، وبين أهل الطاعة وأهل المعصية؟

ولا ظهور للأشـياء إلا بأضدادها، وحياة البشـر دون هذه المتقابلات مخالفة للحكمة من خلقهم.

وإذ قررت لك أن الله سـبحانه لا يـترك الخلق هملا دون تكليف، فإن السؤال الذي لا بد منه: فما الوسيلة التي بها يكون تكليفهم؟

ليس هنا سوى صورتين:

الصورة الأولى: أن يحادث الخالق كل إنسان، أو يلهمه أو يوحي إليه، دون حاجة إلى واسـطة. وحينئذ فإن ابتلاء التكليف يرتفع، ويستوي الناس

في الإيمان، إذ لا يمكن لمن يسمع خطاب الله مباشرة أن يشك فيه أو يتردد في قبوله!

والصورة الثانية: أن يجعل لهم براهين وحججا تعين على الإيمان. والحق أن هذه الحجج موجودة فعلا، ولكنها قاصرة عن إدراك تفاصيل التكليف، لأن العقل لا يمكنه أن يستقل بإدراك ما فيه نفعه ولا بإدراك حقيقة ما يرضي الله، وإنما غايته أن يعرف بعض القيم الإجمالية.

والصورة الثالثة - وهي متوسطة بين الصورتين السابقتين -: أن يرسل إليهم رسلا منهم، يكونون هم الواسطة بين الخالق والمخلوق.

وفي إرسال الرسل يجتمع أمران لا يجتمعان في غيره: إقامة الحجة مع بقاء فائدة التكليف!

ففي بعث الرسل تقوم على الناس الحجة البالغة، التي لا يعذب الله أحدا قبل إقامتها. وفي هذه الحجة من الوضوح والبيان والتفصيل ورد الشبه، ما يعين طالب الحق على معرفته وحسن الالتزام به. ولا يوجد مثل هذا مكتملا في شيء من الحجج الأخرى التي أقامها الله على عباده، كالفطرة والميثاق والعقل وتدبر الآيات الكونية.

ومع ما في الحجة الرسالية من الجلاء والظهور، فإنها لا تبلغ الغاية منها إلا بقلب متلهف إلى معرفة الحق، بعيد عن تأثير الهوى، مستعد لطرح الوساوس والشبهات. ولما كان الناس بطبعهم متفاوتين في هذه الخصال، فإن الابتلاء باتباع هذه الحجة قائم، وتفاوت الناس في الالتزام بها يُبقي فائدة التكليف التي قررت آنفا.

وقد يعرض لبعض الناس هنا شبهة، وهي أن يقول: إن المخلوقين غير مستحقين لأن يرسل إليهم الله الخالق سبحانه رسلا منه، كما أن عامة الناس في بلد ما ليسوا أهلا لأن يرسل إليهم سلطان ذلك البلد رسولا!

والجواب: أن هذا غير صحيح في الصورة المقيس عليها. فإن الملوك والأكابر يُمدحون بأنهم يخاطبون رعيتهم بأنفسهم، أو يجعلون بينهم رسلا ينقلون إليهم خطاباتهم، ويكون ذلك دليلا على شفقتهم ورحمتهم بالرعية، ولا ينقص من سلطتهم وهيبتهم شيئا!

والله ﷻ رحيم بعباده، وقادر لا يعجزه شيء. فمع كمال قدرته وكمال رحمته، ما الذي يمنع أن يرسل إلى الناس رسلا للبيان والإرشاد؟

وقد ذكر الله تعالى أن الرسالة من رحمته، كما في قوله ﷻ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: 107]، وامتن الله على عباده بما في الرسالة من التزكية والتعليم والهداية إلى ما فيه صلاحهم، فقال: ﴿ لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ [آل عمران: 164].

فمن ينكر بعث الله الرسل إلى الناس، إما أن يكون سبب إنكاره زعمه أن الله لا يقدر على ذلك، فهذا قدح في كمال قدرته سبحانه؛ وإما أن يكون السبب أنه ينكر إحسانه تعالى بذلك، فهذا قدح في كمال رحمته.

ولا يناسب كمالَ قدرته وكمال رحمته ﷻ، إلا القول بإرساله الرسل إلى الخلق هداية وبيانا..

والحمد لله على نعمه..

وإذ قد وصلنا معا إلى أن إرسال الرسل متفرع عن كمال الله تعالى، فإن نصوص الكتاب والسنة قد دلت على أن الرسل يتلقون الرسالة من ربهم عن طريق "الوحي".

والوحي على صنفين اثنين:

الأول: ما يكون دون واسطة ويشمل:

- الرؤيا الصالحة، كرؤيا سيدنا إبراهيم عليه السلام، حين رأى في المنام أنه يذبح ولده إسماعيل، أو كرؤيا سيدنا يوسف عليه السلام، حين رأى في منامه أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر له ساجدين.
- التكليم من وراء حجاب، بأن يكلم الله سبحانه النبيَّ مباشرة من وراء حجاب، فيسمع النبيُّ الكلامَ ويوقن أن الذي يكلمه هو الله سبحانه. كما وقع لسيدنا موسى عليه السلام: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: 164]، أو لسيدنا محمد ﷺ في ليلة الإسراء والمعراج.

والثاني: ما يكون بواسطة، ويشمل:

- أن ينْزل الوحي على النبي ﷺ، فيسمع له صوتًا مثل صلصلة الجرس. كما ثبت في الصحيح: (أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشدُّه علي، فيفصم عني وقد وعيت ما قال؛ وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول).
- أن يتمثل الوحي على صورة رجل، فيكلم الرسول ﷺ، فيحفظ ذلك الكلامَ، ويعلمه لأصحابه. كم في حديث عمر المشهور:

(بينا نحن جلوس عند رسول الله ﷺ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرَى عليه أثرُ السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، ثم قال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام.. وفي آخره: قال رسول الله ﷺ: يا عمر، أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإنه جبريل أتاكم يعلِّمُكم دينكم).

لقد أرسلنا رسلنا بالبينات..

ولأن الله رحيم بعباده، فإنه لم يرسل رسولا قط إلا شفعه بما ييسر على المخاطبين الإيمان برسالته، كما قال الحبيب ﷺ: (ما من الأنبياء من نبي، إلا أعطي من الآيات ما مثلُه آمن عليه البشر) رواه البخاري ومسلم.

فأرسل الرسل بالآيات البينات، والمعجزات الواضحات، ونصبها براهين جلية على صدق الرسل في ما أخبروا به، وكمالِ ما أتوا به من الشرائع..

ولكن أيضا على: وجود من أرسلهم، وبعثهم بتلك الشرائع..

وذلك أن براهين النبوة المأخوذة من طريق الحس لمن حضر، ومن طريق استفاضة الخبر وتواتره لمن غاب، موجهةٌ في الأصل لإثبات صحة النبوة، وصدق الأنبياء، ولكن يمكن استعمالها في إثبات وجود الله وكمال ربوبيته، وما يقتضيه ذلك من اعتقادات وتصورات، وذلك من وجهين:

الوجه الأول: أن مِن أظهر دلائل النبوة: المعجزات التي فيها خرق للعادة. وخرق العادة لا يقدر عليه إلا رب الكون وخالقه، والذي يدبّره على وفق تلك العادة المطّردة التي وقع خرقها.

فدلّ خرق العادة على وجود الرب الخالق المدبّر الذي أرسل الرسول، وصدّقه بهذه الآيات الخارقة.

والوجه الثاني: أن دلائل النبوة عموما، سواء أكانت من قبيل الخوارق

للعادة أم لا، تدل على صدق الأنبياء في جميع ما أخبروا به. ولا شك أن أول ما يخبرون به هو: وجود الله وربوبيته، وأسماؤه وصفاته، واستحقاقه للعبادة.

بل إن بعض أفاضل العلماء يقرر أن معجزة انقلاب العصا حية، أمر يدل على ثبوت صانع قدير عليم حكيم، أعظم من دلالة ما اعتاده الناس من خلق الإنسان من نطفة..

ومما يدل على صحة هذه الطريقة في الاستدلال بمعجزات الأنبياء على وجود الخالق وربوبيته: أن أكثر المؤمنين بوجود الله عبر التاريخ، وصلوا لهذا الإيمان من طريق الرسل. فكان ثبوت صحة الرسالة عندهم سابقا على غيره.

وكذا كثير من المستجيبين اليوم لداعي الإيمان من الملاحدة والمتشككين، يؤمنون بصحة الرسالة وصدق الرسل لما يرون من البراهين الدالة على ذلك، فيجرهم هذا الإيمان إلى الإيمان بوجود الله وبربوبيته كما أخبر بها هؤلاء الرسل الكرام.

***

وقد تكرر في القرآن الكريم وصف المعجزات التي أوتيها الأنبياء، وتسميتها آيات بينات، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ [الحديد: 25].

كما سميت في القرآن براهين، كما قال عن آيتي العصا واليد اللتين أرسل بهما موسى عليه السلام: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [القصص: 32].

وقال رسول الله ﷺ: (ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثلُه آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيتُ وحيا أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة) رواه البخاري ومسلم.

فبين الحديث أن الآيات التي يعطاها الأنبياء من القوة بحيث تكون دافعا لحصول الإيمان.

وسميت المعجزات في القرآن الكريم أيضا بصائر، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ [الإسراء: 102]، أي: حججا تبصّر الناظر فيها بصدق ما أرسل به موسى عليه السلام.

وقد احتج موسى عليه السلام بهذه الآيات على من أنكر وجود الله تعالى وادعى الربوبية، بقوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

ولا يضر ما نعلمه من إقرار فرعون بالربوبية في الباطن مع جحوده في الظاهر، كما قال تعالى عن فرعون ومن معه: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: 14]، وذلك لأن المحاجة معه إنما كانت بحسب ظاهره، بقطع النظر عما في قلبه.

فدلّت هذه الأدلة النقلية، على أنه من الممكن إقناع من فسدت فطرته، بربوبية الله تعالى عن طريق دلالة الآيات والمعجزات. أما من كان مقرا بالربوبية بمقتضى فطرته السليمة، فإن هذه الآيات تنفعه في إثبات الألوهية وتفصيلات الأسماء والصفات التي لا سبيل إلى معرفتها إلا من طريق الرسل.

ويدخل في هذه الآيات: معجزة القرآن، كما ورد في الحديث السابق. فإن في إعجاز القرآن اللغوي والبلاغي والتشريعي، ما يدل على أنه ليس من كلام البشر، فما بقي إلا أنه من كلام الرب سبحانه.

ومما يدخل في المعجزات أيضا: ما يقع لأتباع الرسل من أولياء الله الصالحين من الكرامات، وما يقع للمؤمنين من إجابة الدعوات وكشف الكربات ونحو ذلك مما هو امتداد لدلائل النبوة، كما قال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [النمل: 62]. فإجابة المضطر المستغيث، ورفع كربته، من أعظم الأدلة على وجود رب سميع بصير قادر رحيم بعباده. وهذا مما يعلمه المؤمنون ويتيقنونه، بدلالة الحس والتجربة المطردة. ولا تتأخر إجابة دعاء إلا لحكمة تقتضي ذلك.

ويدخل في هذا الباب أيضا: استمرار نصر الأنبياء وهلاك أعدائهم، وانتشار دعوتهم في الآفاق، مع سلامة أتباعهم من وقوع العذاب عليهم. كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الروم: 9-10].

ويضاف إلى ما سبق: إخبار الأنبياء بالمغيبات المستقبلة، ووقوعها على وفق ما أخبروا به. وهذا كثير جدا، تتبعه المعتنون بجمع دلائل النبوة.

ومن أعظم الآيات البينات التي جاء بها الرسـل، هذه الشـرائع الربانية المتضمنة لكمال المصالح للأفراد والمجتمعات.

والمقارنـة بين هذه الشـرائع - خاصة الشـريعة الخاتمـة التي جاء بها محمـد ﷺ - وبيـن مـا يتواضع عليـه الناس مـن القوانين بعيـدا عن إضاءة الوحي في القديم والحديث، يُظهر أن ما بعث به الرسـل لا يمكن أن يكون من وضع البشـر، بل هو من لدن حكيم خبير، هو خالق هذا الكون ومدبّره بما يصلحه..

وقـد ذكرنا من قبلُ بعض خصوصيات التشـريع الرباني التي تميزه عن الشرائع الوضعية، كالاستيعاب والشمول، والمرونة في التعامل مع الوقائع المتجددة، والتوازن بأنواعه، والدقة في تشـييد منظومة الأحكام الشـرعية، وتجـاوز الإطار الزمـاني والمكاني، ليكون التشـريع الربـاني صالحا في كل مكان وزمان.

﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾

لم يأت الرسل بشيء من عندهم، وإنما أدَّوا الأمانة التي كلفهم الله بها، دون نقص ولا زيادة: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النحل: 35]..

وإذا كان المرسِل واحدا، فيستحيل أن يكون لب الرسالة مختلفا متناقضا!

ولذلك فإن الرسلَ أجمعين: مسلمون موحدون، يدعون إلى عبادة الله وحده والكفر بما يعبد من دونه..

وقد اتفقت دعوتهم على أصل العبادة وأساسها، وهو إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة اعتقادا وقولا وعملا:

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى: 13].

وقال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف: 45].

وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: 25].

وقال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: 36].

وقصّ الله سبحانه قصص الرسل على جهة التفصيل، وذكر اتفاقهم على الدعوة إلى التوحيد:

فقال عن نوح: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف: 59].

وقال عن هود: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأعراف: 65].

وقال عن صالح: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: 73].

وقال عن شعيب: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: 85].

وقال عن إبراهيم: ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: 74-78]؛ ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنعام: 78-82]؛ ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف: 26-28].

وقال عن يوسف: ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ

هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [يوسف: 37-40].

وقال عن عيسى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ﴾ [المائدة: 72].

ومع الاتفاق بين الرسل في أصل التوحيد، فإنهم يختلفون في فروع الشرائع، فيفرض الله على بعضهم ما لا يفرضه على آخرين، ويبيح لبعضهم ما لا يبيحه لغيرهم.

قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾ [المائدة: 48]. وقال النبي ﷺ: (نحن معاشر الأنبياء إخوة لعَلات، ديننا واحد) رواه البخاري.

والمرجع في معرفة أسماء الرسل، وسِيَرهم في أقوامهم، وتفاصيل دعواتهم، إلى الدليل النقلي من الكتاب والسنة، فليس للعقل مجال في معرفة شيء من ذلك..

وقد قصّ القرآن علينا من أنباء الرسل جملة صالحة فيها موعظة وعبرة، ولم يقصّ جميعَ أخبارهم، كما قال تعالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ

﴿مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: 164]، إذ المقصود هو الاعتبار والاتعاظ، لا مجرد سرد القصص..

والمذكور من الرسل في القرآن هم آدم ونوح وإدريس وهود وصالح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف ولوط وشعيب ويونس وموسى وهارون وإلياس وزكريا ويحيى واليسع وذو الكفل وداود وسليمان وأيوب وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين.

وذكر الله تعالى لكل واحد منهم فضائل ومناقب، فذكر أنه اتخذ إبراهيم خليلا، وكلم موسى تكليما، ورفع إدريس مكانا عليا، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه؛ وخصّ خمسة منهم بمزيد تفضيل، وهم أولو العزم من الرسل، المذكورون في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: 7]، وفي قوله: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: 13].

لقد جاءكم
رسول من أنفسكم




وأحسنُ منكَ لم تر قطُّ عيني وأجملُ منكَ لم تلِدِ النساءُ
خُلقتَ مبرَّأً من كل عيبٍ كأنّك قد خُلِقتَ كما تشاء

حسان بن ثابت رضي الله عنه

وكم صدوا عن سبيله صدّا، ومن ذا يدافع السيل إذا هدر؛
واعترضوه بالألسنة ردا، ولعمري من يرد على الله القدر؟
وتخاطروا له بسفهائهم كما تخاطرت الفحول بأذناب،
وفتحوا عليه من الحوادث كل شدق فيه من كل داهية ناب.
فما كان إلا نور الشمس:
لا يزال الجاهل يطمع في سرابه ثم لا يضع منه قطرة في سقائه،
ويلقي الصبي غطاءه ليخفيه بحجابه ثم لا يزال النور يتبسط على غطائه.

الرافعي عن معجزة القرآن (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص 23)

(وقد جاء القرآن وصحَّ الإجماع بأنَّ دين الإسلام نَسَخَ كل دين كان قبله، وأنَّ من التزم ما جاءت به التوراة والإنجيل ولم يتبع القرآن فإنَّه كافر، وقد أبطل الله كلَّ شريعة كانت في التوراة والإنجيل وسائر الملل، وافترض على الجن والإنس شرائع الإسلام؛ فلا حرام إلا ما حرمه الإسلام، ولا فرض إلا ما أوجبه الإسلام). **ابن القيم (أحكام أهل الذمة 1/259)**

فإن لم تكن للإنسان حياة أخرى، فقد يتعذر الإيمان بإله يعنى بسعادة خلائقه..
مالكولم جرانت

(نقلا عن قائد المفكرين في القرن العشرين، عباس محمود العقاد: 72)

لا يأتون بمثله

وأنت - أيها الحبيب - بعد أن وصلتَ معي في هذه الرحلة الربانية إلى ذكر الأنبياء والرسل، لا بد ستتأمل تاريخهم وأسماءَهم وسِيَرَهم العطرة، ثم إنك لا بدّ سترى أنهم خُتموا منذ قرون عديدة، ولا بد أنك سائلٌ عن هذا الذي خُتم به أنبياء الله ورسلُه..

فلتقف معي لحظات يسيرة في هذه المحطة الفيحاء، والحديقة الغناء، في أفياء الحديث عن سيد البشر وأكملهم وأفضلهم، ومن بعثه الله هدى ورحمة للناس ﷺ..

وأجمِلْ به حديثا..

لقد بعث الله تعالى رسولَه محمدا ﷺ بالآيات البينات التي تقوم بها الحجة على الناس.

وكان أعظمها أثرا، وأجلها قدرا: معجزة القرآن..

لقد نزل القرآن على محمد ﷺ وهو بين قوم له القدم الراسخة في البيان والبلاغة، والقدرة الهائلة على تذوق الكلام ووزنه بميزان الفصاحة، والتمييز بين جيده ورديئه؛ حتى أقاموا الأسواق الأدبية التي يَعرض فيها البلغاء بضاعتهم من الشعر والخطابة والحكمة، فيتنافسون في تجويد العبارة، ويحتكمون إلى النقاد الجهابذة الذين لهم معرفة بالنقد وتمييز

حرّ الكلام. وكان هؤلاء القوم يعتزّون بالبيان، ويتناقلون شوارده، وتفرح القبيلة منهم إن نبغ منها شاعر، يذكر مفاخرها، ويرد عنها غائلة المعتدين!

في هؤلاء القوم إذن، نزل القرآن الكريم على محمد ﷺ، فأدركوا حين تلاه عليهم أنه كلام لا عهدَ لهم به، وأنه كلام معجز لا يقدر على مثله البشر..

ولخص ذلك الوليد بن المغيرة حين قال عن القرآن: " والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر، وما هو بقول بشر ".

ولخصته أيضا أحوال الذين أسلموا عند سماعهم القرآن، كما حدث لعمر بن الخطاب حين سمع طرفا من سورة طه، ولجبير بن مطعم مع بعض الآيات من سورة الطور، وفي ذلك قصص أخرى. وبلغ من درجة تأثير القرآن في الناس أن المشركين تواصوا بعدم سماعه، وكانوا يلاقون القبائل الواردة إلى مكة في المواسم، فيحذرونهم من الاستماع للقرآن: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾ [فصلت: 26]!

ولخصه أيضا أن القرآن تحدى هؤلاء العرب الفصحاء، فلم يفلحوا في هذا التحدي:

تحداهم أولا بأن يأتوا بمثل هذا القرآن: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾ [الإسراء: 88].

ثم تحداهم بأن يأتوا بعشر سور: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ

سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [فصلت: 26].

ثم تحداهم بسورة واحدة: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [يونس: 38].

ولم يرفع أرباب الفصاحة التحدي، ولو في أصغر صوره!

وهكذا استقر معنى الإعجاز القرآني، وأجمعت عليه الأمة في قرونها الزاهرة.

وحين دخلت إلى الأمة بعد ذلك أفكار أعجمية تشكك في هذا المعنى، تصدى لها علماء اللغة والتفسير، وبينوا ما فيها من الخلل الفظيع، كما فعل الباقلاني والجرجاني والخطابي وغيرهم.

وقد ذكر العلماء أن الإعجاز القرآني على وجهين اثنين:

الوجه الأول: هو الذي وقع به التحدي، وهو الإعجاز البلاغي، الذي يطَّرد في كل سورة من سور القرآن الكريم.

والوجه الثاني: لم يقع به التحدي، كالإخبار بالغيب، وما تضمنه القرآن من معارف لا يتهيأ للبشر الإحاطة بها.

فمن كان من الناس من أهل المعرفة العالية بلسان العرب، والوقوف على طرق العرب ومذاهبهم في الكلام، يمكنه أن يدرك الإعجاز القرآني دون كبير بحث وتدقيق. وهذا كحال العرب في زمن النبوة.

ومن كان من أهل معرفة اللسان العربي، دون أن يصل من ذلك إلى

المرتبة العالية، فإنه يحتاج إلى أن يأخذ نفسه بدراسة أساليب الفصاحة، وقواعد البلاغة، حتى يتأهل لإدراك ما في القرآن الكريم من البلاغة المعجزة.

ومن لم يكن من أصحاب اللسان العربي، فيمكنه إدراك الإعجاز القرآني عن طريق الاستدلال العقلي، بأن يتأمل عجز العرب عن مجاراة القرآن والنسج على منواله، مع قوة ملكاتهم اللغوية، وشدة حرصهم على معارضة ما جاء به النبي ﷺ. كما يمكنه إدراك الإعجاز القرآني من خلال الوجه الثاني، المتضمن للإخبار عن الغيبيات والمعارف الكونية الهائلة.

والإعجاز البلاغي للقرآن أكبر من أن يحاط به في بضعة أسطر، فإنه الأساس الذي بُني عليه علم متكامل هو علم البلاغة، ويمكن تلخيص ذلك في أمور:

أولها: مغايرة الأسلوب القرآني لجميع أنماط التعبير المعروفة عند العرب.

والثاني: عدم التفاوت الفني في الأسلوب القرآني.

والثالث: تميز الكلمة من القرآن عن غيرها من سائر الكلام، بما فيها من الرونق والفصاحة.

والرابع: سلامة النظم القرآني من الوحشي المستكره، والغريب المستنكر، والصنعة اللفظية المتكلفة؛ مما جعله قريبا من الأفهام، ومستساغا في الأسماع..

لكن يا صديقي العزيز: هـل القرآن الكريم هو المعجزة الوحيدة لنبينا محمد ﷺ؟

لقد اشـتهر ذلـك عند كثير من الناس، فغفلوا عن المعجزات الحسـية الكثيـرة التـي تداولهـا علمـاء المسـلمين في كتبهـم، مـع أنها لا تقلّ عن المعجزات التي أتى بها الأنبياء السابقون.

فمن المعجزات الثابتة عن رسول الله ﷺ: الإسراء والمعراج، وتكثير الطعـام، ونبع الماء بين أصابعه الشـريفة، وحنين الجذع، وانشـقاق القمر، وتسليم الحجر، وشفاء بعض أصحابه، وغير ذلك.

بـل إن معجـزات محمـد ﷺ تفـوق في التفصيـل معجـزات الأنبيـاء السابقين!

كمـا قال الإمام الشـافعي: "مـا أعطى الله نبيا ما أعطـى محمدا". فقال تلميذه الربيع: "أعطى عيسـى إحياء الموتى" فقال الشافعي: "أعطى محمدا حنين الجذع حتى سمع صوته، فهذا أكبر من ذلك".

وهذه المعجزات الحسـية لرسول الله ﷺ ثابتة عنه بطريق الاستفاضة والتواتـر، فقد رواهـا جمع من الصحابة الذين شـهدوها، وعنهم جمع من التابعين، وعن هؤلاء جمع من تلامذتهم، إلى أن يصل الأمر إلى المصنفات الحديثية المتداولة.

والمقصود هنا أصل حصـول المعجزات المادية، لا أفرادها. وبعبارة أخـرى، فقـد ينازع بعض النـاس في تواتر معجزة معينـة، ولكن إذا جمعت الروايـات المختلفـة في هـذا البـاب، فإنهـا تـدل - دون شـك - علـى وقوع المعجزات إجمالا.

قال القاضي عياض: "قال بعض أئمتنا ويجرى هذا المجرى على الجملة أنه قد جرى على يديه ﷺ آيات وخوارق عادات، إن لم يبلغ واحد منها معينا القطع فيبلغها جميعها"(1).

قال السعد التفتازاني: ".. نقل عنه من الأمور الخارقة للعادة ما بلغ القدر المشترك منه - أعني ظهور المعجزة - حد التواتر وإن كانت تفاصيلها آحادا، كشجاعة علي وَجودِ حاتم فإن كلا منهما ثبت بالتواتر وإن كان تفاصيلها آحادا، وهي مذكورة في كتب السير"(2).

وهذا التواتر يفيد العلم اليقيني، الذي لا يدخله شك ولا ارتياب..

وقد زعم بعضهم أن للنبي ﷺ معجزة وحيدة هي القرآن الكريم. وقد يستدلون بقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ [الإسراء: 59].

والحق أن الآية الكريمة خاصة بآيات الاقتراح، أي بالمعجزات التي يطلب المشركون حدوثها. فبين الله سبحانه أن هذه المعجزات إن وقعت ولم يؤمنوا بها، كانوا مستحقين للهلاك العاجل في الدنيا. والله تعالى شاء أن تكون هذه الأمة مخالفة لمسالك الأمم السابقة، فلا يلحقهم هلاك دنيوي يستأصلهم.

---

(1) الشفا للقاضي عياض: 1/ 253-254. قال الشهاب في الحاشية: «أي مجموعها وهذا يسمى التواتر المعنوي».

(2) شرح العقائد النسفية (بحاشية الكستلي): 168.

فليس في الآية عدم إرسال الآيات مطلقا، وإنما هي خاصة بنوع مخصوص منها.

ويستدلون أيضا بالحديث الصحيح: (ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثلُه آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيتُ وحيا أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة) رواه البخاري ومسلم.

والحديث لا يدل على نفي المعجزات الحسية، ولكن يدل على المنزلة العظيمة لمعجزة القرآن الكريم، فإنها معجزة خالدة على مر الدهور، يستمر انتفاع الناس بها إلى قيام الساعة، خلافا للمعجزات المادية التي أوتيَها الأنبياء السابقون، وانقطع النفع بها بعد موتهم.

فحصر المعجزات في القرآن - كما دل عليه لفظ (إنما) - ليس على ظاهره، بل هو لبيان تميزه عن سائرها. ومما يشبه هذا التعبيرَ قولُه تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال: 2].

وإذا ثبتت هذه المعجزات الحسية عن رسول الله ﷺ - وهي ثابتة كما سبق بيانه - فإنها تستلزم صدق من جاء بها، وتدل بوضوح على نبوة الحبيب ﷺ، وذلك من أوجه مختلفة:

أولها: أن أخص خصائص المعجزات امتناع معارضتها من أفراد النوع البشري، فإن هذا مقتضى الإعجاز بها، أي أن الناس يعجزون عن الإتيان بمثلها. فتكون حينئذ خاصة بالأنبياء، لا تتعداهم إلى غيرهم.

والمتأمل في معجزات رسول الله ﷺ، سواء منها القرآن الكريم أو

المعجزات الحسية، يجزم بأنها سالمة من المعارضة، فإنه لم يستطع أحد قط أن يأتي بمثلها.

والثاني: أن اجتماع المعارضين على تكذيب النبي، وحرصهم على إبطال دعواه، ثم عجزهم عن الإتيان بمثل ما أتى به، دليل على أنه لم يأت بهذا من عند نفسه، بل هو مؤيد من الله سبحانه. وذلك أن الذي يستطيع تعطيل قوانين الطبيعة المعتادة، إنما هو خالق الكون وواضع قوانينه.

فيكون ظهور المعجزة على يد النبي، بمثابة التصديق من الله تعالى له في دعواه أنه مرسل من عند الله.

والثالث: أن هذه المعجزات مقترنة بدعوى النبوة. فلا يخلو صاحبها من حالين:

إما أن يكون كاذبا في دعواه، دجالا لا يتورع عن الكذب على الله سبحانه؛

وإما أن يكون نبيا كريما، ورسولا صادقا في دعواه.

وبين مفهومي النبي والدجال كالذي بين السماء والأرض!

فلا يلتبس هذا بذاك إلا على جاهل مغرق في الجهل، لا يستطيع التمييز بين صلاح النبي وأحواله السَّنية وخصاله الحميدة؛ وبين فساد الدجال وأحواله القبيحة وصفاته الذميمة.

والرابع: أن المعجزات النبوية لا يمكن أن تختلط بسحر السحرة وتدجيلهم. وإذا لم تكن سحرا، فلا يبقى إلا أنها آيات يؤيد الله بها نبيه، فتكون دليلا على صدق صاحبها.

وأما عدم التباس المعجزات بالسحر، فلأسباب كثيرة، منها:

أن السحر يمكن تعلمه والإتيان بمثله، بخلاف المعجزة فإنها ناتجة عن محض اصطفاء من الله تعالى، لا يد للمخلوق في اكتسابها.

ومنها: أن معارضة السحر بمثله ممكن ووارد، أما المعجزة فسبق أنها تمتنع معارضتها.

ومنها: أن السحر أغلبه تخييل وخداع، وأما المعجزة فهي تغيير للحقائق والماهيات.

ومنها: أن غاية الساحر - في الغالب - تحصيل الدنيا، وغاية النبي هداية الناس.

ومنها: أن للنبي حالا عظيمة من العبادة والتقوى والصدق والعدل، وغير ذلك من المكارم والصفات الحسنة. وأما الساحر فهو بمعزل عن ذلك كله، فالغالب عليه اقتراف المنكرات، والوقوع في الشركيات، والاستهانة بالمحرمات!

ومنها: أن النبي يأمر الناس بما فيه صلاحهم في دنياهم وآخرتهم، وينهاهم عما فيه فساد أديانهم ومعايشهم، ولا يأتي إلا بما يوافق الفطرة البشرية السوية. والساحر عمله في إذاية الناس، وتزيين الشرك والكذب والظلم في عيونهم.

إلى غير ذلك من وجوه التمييز بين الأمرين.

﴿ محمد رسول الله ﴾

هذا النبي الكريم، الذي أيده الله بهذه الآيات الباهرات، هو: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، من قبيلة قريش التي كانت تستوطن مكة المكرمة، في الحجاز من جزيرة العرب. وهو من ذرية نبي الله إسماعيل بن إبراهيم - عليهما الصلاة والسلام.

ولد رسول الله ﷺ بمكة عام الفيل، ومات أبوه عبدُ الله قبلَ أن يولد، ثم ماتت أمه وهو طفلٌ صغير، فكفله جده عبد المطلب، ثم مات جده فكفله عمه أبو طالب.

وعاش محمد ﷺ حياة اليُتم في مكة، يحوطه رب العزة جل جلاله بعنايته، ويكلؤه بحفظه ورعايته..

فلأجل ذلك، عاش - قبل بعثته - عيشة الصلاح، محسنا إلى الناس، بعيدا عن مواضع الفساد والفجور التي كان شباب الجاهلية يقبلون عليها غيرَ هيّابين..

ثم شرع هذا النبي الكريم ﷺ يخرج إلى جبل قريب من مكة، فيقيم في غار فيه هو غار "حراء"، يتعبد الله تعالى مدة من الزمن، حتى نزل عليه الوحي وهو في هذا الغار، فجاءه الملَك من عند الله عز وجل، وفجأه بنزول الوحي. وكان أول ما نزل من القرآن قوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: 1-5].

ثـم تتابـع نزول الوحـي علـى رسـول الله ﷺ منجّما مفرقا، بحسـب الأحـوال والوقائـع، يثبت الله بنزوله قلب نبيه الكريم، ويرشـد المسـلمين الأوائل إلى سبيل الحق، وطرق وضع دعائم الأمة الإسلامية الوليدة.

ومـا فتئ رسـول الله يدعـو قومه، فيَلقـى من رؤوسـهم الأذى والصد والعناد والسخرية والتكذيب، حتى إن منهم من يأتي إليه وهو ساجد فيضع القـذر على ظهره، ومنهم من يبصق في وجهه، ومنهم من يضع التراب على رأسـه، وهـو - بأبي هو وأمـي - ﷺ لا يقابل ذلك كلـه إلا بالصبر، ثابتا في درب الدعوة إلى الحق، متيقنا من موعود ربه ﷻ.

ولقـي أصحابُـه من الأذى الشـيء الكثير، فمنهم من قُتـل، ومنهم من ضُـرب، ومنهـم من عُـذّب بألوان العـذاب، فصبروا علـى الأذى صبرَ من خالط الإيمانُ الصحيح شغاف قلبه، ورأى أنه يحمل على كتفيه أمانة ثقيلة يجب عليه أن يوصلها إلى من بعده، فيقبح به أن يلين ويضعف عن حملها..

وحين اشتد الأذى على المسلمين، أذن الله تعالى في هجرة أولى فثانية إلى الحبشة، حيث النجاشـي ـ الملك النصراني العادل ـ، فكانت الهجرتان تخفيفا على المسلمين إلى حين.

ثم أذِن الله تعالى لرسـوله الكريم ﷺ - بعد ثلاثة عشـر عاما قضاها في الدعوة بمكة ـ في الهجرة العظمى إلى مدينة يثرب، حيث الأوسُ والخزرج الذين لاقى أغلبُهم الدعوة الإسـلامية بالترحيـب والقبول، فصارت يثربُ منـذ ذلك الحين: المدينة النبوية، التي أنار جنباتِها ضوءُ الإيمان، ثم انطلق يشعّ على الكون كله..

ومكث النبي ﷺ في المدينة يدعو إلى الله ﷻ، ويلقى أذى المنافقين في داخل المدينة، وتآمر اليهود في أطرافها، وتهديد المشركين من خارجها. حتى أذن الله له في الجهاد في سبيله، فقام - مع أصحابه المكرمين - يدافع عن الحق، وينشر دعوة الإسلام في ربوع الجزيرة العربية، حتى يتبين الحق من الباطل، وتمتاز سبيل الهدى عن سبل الضلال..

فكانت معركة بدر الكبرى، التي فرق الله بها بين الحق والباطل..

وكانت معركة أحد التي محّص الله فيها المؤمنين..

وكانت معركة الخندق، التي ردّ الله فيها الأحزاب بكيدهم..

وكان فتح مكة الذي فتح الله به قلوب العرب قاطبة للإسلام، فدخلوا في دين الله أفواجا..

وبعد عشر سنوات من الدعوة والجهاد والتربية والتعليم في المدينة، انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، بعد أن دانت الجزيرة العربية كلها للإسلام، وبدأت تظهر إرهاصات انتشاره خارجها..

فأكمل الصحابة العمل الدعوي، ونشروا الإسلام في كل مكان..

والحمد لله رب العالمين.

***

وكان هذا الحبيب الكريم ﷺ، على أكمل الصفات البشرية وأرقاها وأعظمها:

كان شديد التواضع مع أنه سيد البشر أجمعين، يكره أن يقوم أصحابه

له، ويزورهم ويمازحهم، ويسلم على صبيانهم، ويمسح رؤوسهم؛ ويأتي ضعفاء المسلمين، ويعود مرضاهم، ويشهد جنائزهم؛ ويأكل على الأرض، ويجلس على الأرض، ويُدعى إلى خبز الشعير فيجيب..

وكان شديد الرفق، يرفق بالأصحاب المتعلمين، وبالأعراب الجاهلين، وباليهود المناكفين. وما ضرب قطّ امرأة ولا خادما، ولا ضرب شيئا قط إلا أن يكون جهادا في سبيل الله. وقد خدمه أنس بن مالك تسع سنين، فما قال لشيء صنعه، لم فعلتَ كذا؟ ولا عاب عليه شيئًا قط، ولا قال له "أُف" قط..

وكان رؤوفا شفيقا رحيما، يرحم الصغير والضعيف، ويأمر بالرحمة ويعلمها لأصحابه؛ ويشفق على أمته، فينادي ربه في أوقات الهول والشدة: "أمتي، أمتي.. "، ويحزن حين يتنكب بعض الناس طريق الهداية، ويسلكون سبل الضلالة..

وكان كريما جوادا، يعطي عطاءَ مَن لا يخاف الفاقة، ولا يخشى الفقر، منشرح الصدر بالعطاء، سمح النفس بالإنفاق، لا يتكلف في ذلك ولا يتصنع..

وكان حريصا على الآخرة، متجافيا عن الدنيا: دخل عليه عبد الله ابن مسعود وهو نائم على حصير قد أثَّر بجنبه فبكى؛ فقال: ما يُبكيك يا عبد الله؟ قل: يا رسول الله، كسرى وقيصر قد يطؤون على الخز والديباج والحرير، وأنت نائم على هذا الحصير قد أثَّر في جنبك! فقال: لا تبكِ يا عبد الله، فإن لهم الدنيا ولنا الآخرة..

وكان يكره الكلام القبيح ويُعرض عنه، ويُكَنِّي عن الأمور المُستقبَحَة في العُرف إذا اضطره الكلام إلى ذكرها..

وكان يكثر من الدعاء، ويحب جوامعه؛ ويكثر من نوافل الصلاة والصيام؛ ويكثر من ذكر الله وتسبيحه وتعظيمه..

واختص النبي الكريم ﷺ عن سائر النبيئين، بمجموعة من الخصائص، منها:

- أنه خاتم النبيئين: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: 40].
- وأنه مبعوث إلى الناس كافة: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: 158].
- وأنه سيد الأولين والآخرين، كما قال ﷺ: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر).
- وأنه نصر بالرعب مسيرة شهر،
- وجعلت له الأرض مسجدا وطهورا،
- وأحلت له الغنائم،
- وأعطي الشفاعة العظمى، وكل ذلك في الحديث الصحيح: (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من

أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة..).

وخصائصه كثيرة جدا، تتبعها العلماء وصنفوا فيها المصنفات..

وإنني - يا صديقي - لأكتب هذه الكلمات، والحياءُ يُغالِبني..

إذ كيف لي أن أحيط في هذه الكلمات المختصرة بالشمائل النبوية السامية، التي أعْيَت الحُفاظ أن يحفظوها، والعلماء أن يشرحوها، والمسلمين أن يتمثلوها، والأعداء أن ينكروها؟!

ولكن..

إنما أستثير بهذه الكلمات همتَك لتخوض هذا البحر الخضم، تعلما واقتداء..

فإن شمائل الحبيب ﷺ بحرٌ من العلم زاخر..

وقبل ذلك وبعده: هي منهج حياة، وسبيل نجاة..

فأين المشمرون للعمل؟

وإن هذه الشمائل تنمّي في قلبك المحبة، بل تغرس فيه جذور الإيمان الراسخة، التي ما تلبث أن تكون دوحة وارفة الظلال، تثمر وتزهر - كلَّ حين بإذن ربها - عملا صالحا:

(لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده ووالده والناس أجمعين) رواه البخاري ومسلم.

وفوق ذلك هو إيمـان له حلاوة، يعرف طعمها من ذاق، ويُحرمها من أدمن الجحود والشقاق:

(ثلاث مـن كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسـوله أحب إليـه ممـا سـواهما، وأن يُحبَّ المرءَ لا يُحبـه إلا لله، وأن يَكـرهَ أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار) رواه مسلم.

اللهم جنبنا النار بمنّك وفضلك..

إن الدين عند الله الإسلام

قد علمتَ - أيها الحبيب - أن من خصائص رسول الله ﷺ، التي اختص بها عن الأنبياء جميعهم: أنه خاتم النبيئين، فلا نبيَّ بعده.

قال الله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: 40]. وفي الحديث: (إنه سيكون بعدي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين ولا نبي بعدي) رواه الترمذي. وثبت في الصحيح قوله ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: (ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي).

به ﷺ خُتم الأنبياء..

وبرسالته خُتمت الرسالات..

وبموته انقطع خبر السماء، فما عاد البشر ينتظرون نبيا يأتيه الوحي من الله، بل ما بقي إلا الالتزام بما في هذا "النبأ العظيم" الذي أنزل على سيد الخلق..

ولأن هذه الرسالة هي الخاتمة، فقد تجمّع فيها ما تفرق في غيرها من الخير، فكانت الأمة الملتزمة بتعاليمها وسطا بين الأمم، تعتدل حين تتطرف الأمم الأخرى، وتوازن حين تطفّف الأمم الأخرى..

وسط بين رهبانيةٍ مبتدعة تلغي مطالب الجسد، وانحطاطٍ بهيمي في درَك تلبية الغرائز..

وسط بين سمو النفس في مراقي العبادة، وانضباطِ العقل بمعايير العلم..

وسط بين الانكباب على العمل الأخروي، وأخذِ النصيب من العمل الدنيوي..

وقد جاءت هذه الرسالة الخاتمة، ناسخةً لجميع ما سبقها من الأديان، فلا يقبل الله من يهودي ولا نصراني بعد بعثة محمد ﷺ أن يتدين بدين آخر غير الإسلام.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: 19]، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: 85].

واليهود والنصارى مدعوون بنص الكتاب والسنة إلى الإيمان بهذا القرآن:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ﴾ [النساء: 47].

وفي الحديث الصحيح: (والذي نفس محمد بيده: لا يسمعُ بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار) رواه مسلم.

وهذا الكتاب الذي أنزل على محمد ﷺ مهيمن على الكتب السابقة:

وقال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: 48].

وبيان كون القرآن الكريم مهيمنا على الكتب السابقة: أنه قرر ما فيها من الخبر عن الله واليوم الآخر، وزاد ذلك بيانا، وفصّل البراهين عليه؛ كما قرّر نبوة الأنبياء كلِّهم، وقرر الشرائع الكلية التي بُعثوا بها، وبيّن ما حرّف منها أو بُدّل أو كُتم.

ولأن الرسالة المحمدية هي خاتمة الرسالات، والناسخة لما قبلها، فإن من كفر بها استحق الخلود في النار:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ [البينة: 6].

ومن آمن بها، عصم ماله ودمه في الدنيا، ونجا في الآخرة من الخلود في النار، وكان مآله الخلود في الجنة:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ [البينة: 7-8].

ومن بركة التوحيد وعظيم فضله، أن من كان موحدا وأذنب بما دون الشرك، فإنه لا يخلد في النار، بل قد يعفو الله عنه فيدخل الجنة دون عذاب، وقد يدخل النار ليُطَهر فيها من ذنوبه، ثم يخرج منها ليكون مآله إلى الجنة، ويكون ذلك بشفاعة الشافعين أو بمحض فضل الله تعالى.

فالإسلام إذن هو الحق الخالص، وليس لأحد من الناس مندوحة في التدين بغيره من الأديان.

وأما قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ [البقرة: 256]، فيحتمل أمورا:

○ أولها: أنها آية منسوخة؛ والناسخ لها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ ﴾ [التحريم: 9]، وقوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: 123]، وهذا مذهب جماعة من المفسرين.

○ والثاني: أنها ليست منسوخة ولكن نزلت في أهل الكتاب خاصة، وأنهم لا يُكرهون على الإسلام إذا أدّوا الجزية؛ بل الذين يُكرَهون هم أهل الأوثان.

○ والثالث: أن هذه الآية في الأنصار خاصة، كما دل على ذلك ما جاء في أسباب النزول، أن المرأة من الأنصار تكون مقلاة لا يكاد يعيش لها ولد، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوّده، فلما أجليت يهود بني نضير كان فيهم مِن أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندَع أبناءنا، فنزلت الآية.

وهنالك احتمالات أخرى، تمنع وقوع التعارض بين هذه الآية، والآيات الأخرى الكثيرة الدالة على أن الإسلام هو الحق الذي لا يقبل الله من الناس سواه..

الذين يؤمنون بالغيب

عجِبتُ للملحد كيف يطيق ذكر الموت، وهو لا يعتقد فيه إلا أنه اندثار لهذه الكتلة الكيميائية التي تسمى "إنسانا"، به تنفك إلى عناصرها الكيميائية، وتتحول إلى مادة أخرى، كما تتحول المادة كلها!

وعجبتُ للملحد كيف يطيق فراق الأحبة عند الموت، وليس عنده أدنى أمل في اللقاء بهم، في حياة هي أفضل وأكرم من هذه الحياة الدنيا!

وعجبتُ للملحد كيف يطيب عيشه ولا يتفطر قلبه، وهو يرى كثيرا من الظلمة والفجرة يمكَّن لهم في الأرض فيعيثون فيها فسادا، وكثيرا من الصالحين يعذَّبون ويشردون، ولا يرون في هذه الحياة الدنيا نصرا ولا تمكينا؛ ثم لا توجد دار أخرى تقام فيها موازين القسط، فيقتص للمظلوم من الظالم، وللمستضعف من الجبار العنيد!

أما أنا وأنت - يا صديقي - فقد سلَّمَنا الله سبحانه من هذا العبث والضياع، وقادنا إلى مرابع الطمأنينة وسكينة النفس..

وأساس ذلك أننا لا نأخذ هذه الحياة الدنيا مجردة عن قرينتها: الحياة الآخرة؛ ولسنا نعدّ الموت نهاية وعدما، بل انتقالا من دار إلى دار، ومن حياة فناء إلى حياة خلود، ومن الكدر والابتلاء إلى الحساب والجزاء، وفق العدل الرباني الذي لا اختلال فيه..

ولذلك، فالإيمان باليوم الآخر موضوع محوري في عقيدة المسلم، لا يصح إيمانه إلا به..

ولذلك أيضا، فإن في القرآن والسنة من تفاصيل اليوم الآخر، ما يكفي المؤمن، ويعصمه من الحيرة.

والأمور الغيبية - وعلى رأسها تفاصيل اليوم الآخر - لا مدخل فيها للعقل، وإنما مرجعها إلى النقل المحض عن الرسل، الذين أوكل الله لهم مهمة الإخبار بها..

فغاية العقل - يا صديقي - أن يوصلك إلى الرسول، ثم ما عليه بعد ذلك إلا أن يسلم قياده للوحي، فيتلقى منه ما يحار العقل فيه، ويعجز عن إدراك كنهه..

والرسل لم يأتوا بإثبات الموت، فذلك أمر مفروغ منه، لا يجادل فيه إنسان، مؤمنا كان أو كافرا؛ وإنما أتوا بإثبات ما بعد الموت، من الأمور الغيبية التي لا يمكن للعقل الإنساني القاصر أن يدرك منها، إلا ما يتلقاه من الوحي..

ولذلك، فإن من الخلل الذي قد يقع فيه بعض الوعاظ: إكثارهم من ذكر الموت، مجردا عن البشارة بما بعده لمن آمن وعمل الصالحات، والنذارة بما بعده لمن كفر واقترف الموبقات.

وليست هذه طريقة القرآن!

بل المطلوب في الشريعة المطهرة: الإيمان بالحياة الأخرى، لغرض إصلاح النفس والقلب والعمل في الحياة الدنيا..

والمقصود بالإيمان باليوم الآخر: التصديق الجازم بأنه آت دون شك. وليس هذا تصديقا مجردا بل هو تصديق يقتضي العمل. فليس عمل المسلم الذي يعتقد بأن اليوم الآخر آت لا محالة، وأنه يوم حساب وجزاء؛ مثل عمل الملحد الذي لا يرى للحياة امتدادا بعد الموت..

ويدخل في الإيمان باليوم الآخر أيضا: الإيمان بقيام الساعة، وهو حدث عظيم لا يعلم موعده إلا الله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ [لقمان: 34]، ولا يعلمه أحد من الناس، حتى أقرب الخلق إلى الله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ ﴾ [الأعراف: 187].

وقد جعل الله تعالى للساعة أشراطا وعلامات، كالدخان والدابة ونزول عيسى عليه السلام والدجال والملاحم وغير ذلك، وفي القرآن والسنة البيان التفصيلي لهذه الأمارات.

ومما يجب اعتقاده مما يقع بعد الموت: فتنة القبر ونعيمه أو عذابه، كما قال تعالى: ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: 45-46]؛ وكما قال رسول الله ﷺ: (إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة) رواه البخاري ومسلم، وقالت عائشة: (ما رأيت رسول الله ﷺ بعدُ صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر) رواه البخاري ومسلم.

ومما جاء الشرع بإثباته أيضا:

البعث والحشر: ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴾ [الحج: 7]، ﴿ وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: 47]؛

والنفخ في الصور: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر: 68]؛

والعرض: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة: 18]؛

والحساب: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: 6-8]؛

ونشر الصحف: ﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ [التكوير: 10]؛

ونصب الميزان: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: 47]؛

والصراط: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم: 71-72]؛

والحوض: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ [الكوثر: 1]؛ وفي الحديث: (حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منه فلا يظمأ أبدا) رواه البخاري ومسلم.

والجنة والنار: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: 24-25].

اللهم جنبنا النار، واجعلنا من أهل الجنة..

وما ينطق عن الهوى




السنة سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق.

مالك بن أنس (تاريخ بغداد 308/ 8)

أجمع المسلمون على أن من استبان له سنة من رسول الله ﷺ لم يحل له أن يدَعها لقول أحد

محمد بن إدريس الشافعي (إيقاظ همم أولي الأبصار لصالح الفلاني ص58)

في وقت مبكر: أدرك علماء الإسلام خطر الشهادات الكاذبة وبالتالي خطر المذاهب الفاسدة، فوضعوا علما متطورا لنقد الروايات التراثية. إن (علم الحديث) - كما كان يُدعى - يختلف لاعتبارات كثيرة عن النقد الحديث للمصادر التاريخية، والمدارس الحديثة لا توافق في الغالب على مناهج العلماء التقليديين في صحة ودقة الروايات القديمة. ولكن ما كان عند المؤرخين العرب في القرون الوسطى من الفحص الدقيق لسلاسل السند، والجمع والحفظ الدقيق لاختلاف الروايات، مَنَحَهم احترافية وتقدما لا مثيل لها في العصور القديمة، ولا مُوازي لها في الغرب في عصوره الوسطى..

بيرنارد لويس (Islam in History /104-105 /2001) بترجمتي.

﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾

ما أرسل الله تعالى الرسل إلا ليكون كلامُهم نبراسا يستضيء الناس به، وذلك يقتضي أن يطيعوهم فيما يأمرونهم به: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [النساء: 64].

فما بُعِثوا إلا ليكونوا مُطاعين، يأتمر الناس بما يأمرونهم به، وينتهون عما نهوهم عنه.

وطاعة الرسول سبيل الفلاح والهدى، ومعصيته طريق الضلال والردى:

﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور: 54].

فبيّن البارئ سبحانه أن على الرسول البلاغ، وعلى الناس الطاعة والاتباع، فإن هم فعلوا رشدوا واهتدوا..

وفي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾ [النساء: 59]، خطاب للمؤمنين يحثهم على طاعة الرسول؛ وهي طاعة مطلقة، لا تقييد فيها، لأن الرسول مؤيّد بالوحي، معصوم بحفظ الله له، لا ينطق عن الهوى، ولا يخرج من لسانه إلا حق..

وطاعة الرسول ليست مستقلة عن طاعة الله، بل هي من طاعة الله؛

فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله، لأن الرسول لا يأمر إلا بما هو طاعة لله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: 80]، وقال رسول الله ﷺ: (من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله) رواه البخاري ومسلم.

فالواجب طاعة الرسول بِما جاء به عن الله تعالى، والاقتِداء به قولا وعملا، وتجنب ما نهى عنه. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: 10]، فأخبر الله ﷻ أن بيعة رسوله بيعة له سبحانه.

بل إن طاعة الرسول واتباعه وتحكيمه، من صميم الإيمان، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65]. وقد نزلت الآية في رجل خاصم الزبير فِي شراج الحرة التي يسقون بها النخل، فتحاكما إلى رسول الله ﷺ فقال: (اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك)، فقال الأنصاري: يا رسول الله، أن كان ابنَ عمتك؛ فتلوّن وجه رسول الله ﷺ وقال: (يا زبير، اسْقِ ثم احْبِس الماء حتى يرجع إلى الجدر!).

وأخرج البخاري وغيره: (جاءت ملائكة إلى نبي الله ﷺ وهو نائم فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلا فاضربوا له مثلا، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: مثله كمثل رجل بنى دارا وجعل فيها مأدبة وبعث داعيا فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل

من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة فقالوا: أولوها له: يفقهها، فقال بعضهم: إنه نائم وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: فالدار الجنة، والداعي محمد ﷺ فمن أطاع محمدا ﷺ فقد أطاع الله ومن عصى محمدا ﷺ فقد عصى الله، ومحمد ﷺ فرق بين الناس).

ولأن طاعة الرسول من طاعة الله، فإن تركها يترتب عليه العقاب، وفعلها ينبني عليه الثواب؛ فقد أخرج البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا: يا رسول الله ومن يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى).

فطاعته سببٌ لدخول الجنَّة، ومخالفة أمره سببٌ لدخول النَّار.

وطاعة رسول الله ﷺ دليل على محبة الله تعالى، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: 31].

فعلامة حبهم اللهَ، اتباعهم رسولَه حيًّا، واتباع سنته بعد وفاته ﷺ..

وجزاء هذا الاتباع، فوزُهم بمحبة الله إياهم..

فطوبى للمحبين المتّبعين..

وأمرَ الله بالأخذ بما جاء به محمد ﷺ، والانتهاء عما نهى عنه فقال: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: 7].

فهذا أمر واضح لا لبس فيه، ولا احتمال..

فلا يحلُّ تقديم أيِّ قول على قوله ﷺ، وليس للمسلم إلا أن يأخذ ما أمره الرسول به، ويخلع ما نهاه عنه، فإن ذلك من صميم أمر الله ونهيه.

فعن ابن مسعود أنه قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله تعالى. فبلغ ذلك امرأة يقال لها: أم يعقوب فجاءت فقالت: إنه بلغني أنك قلت كيت وكيت، فقال: مالي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله، فقالت: لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدته قال: إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه أما قرأت: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ قالت: بلى قال: فإنه نهى عنه. رواه البخاري ومسلم.

وبيّن الله تعالى أن مخالفة أمر رسول الله سبب للفتن والعذاب، فقال ﷻ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: 63].

قال أحمد بن حنبل: نظرت في المصحف فوجدت فيه طاعة رسول الله ﷺ في ثلاثة وثلاثين موضعا. ثم جعل يتلو هذه الآية ويكررها ويقول: الفتنة الشرك، لعله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيزيغ فيهلكه.

وقال رجل لمالك بن أنس: أُحرم من مسجد النبي ﷺ أو من ذي الحليفة؟

فقال له: بل من ذي الحليفة.

فقال الرجل: فإني أحرمت من مسجد رسول الله ﷺ.

فقال مالك: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

فجعل الإمام مالكٌ مخالفةَ سنة الحبيب ﷺ ولو لطلب الازدياد من الأجر، فتنةً داخلة في وعيد هذه الآية!

اللهم اجعلنا من المطيعين لنبيك، المتبعين له في صغير أمرنا وكبيره، وباعد بيننا وبين معصيته..

لتبين للناس ما نزل إليهم

شاء الله تعالى أن يكون القرآن محيطا بجميع ما يحتاج إليه المسلم في معاشه ومعاده، لكن على سبيل الإجمال لا التفصيل؛ وترك تفصيل الأحكام إلى سنة النبي ﷺ، ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: 44].

فما من شيء إلا بُيِّن للمكلفين في القرآن، ولكن أفهام الناس تقصر دون إدراكه، فيحتاجون إلى البيان من أعلم الناس بكلام ربه.

فالسنة النبوية في شقها الفعلي هي التطبيق العملي للقرآن؛ وفي شقها القولي: جاءت عاضدة لآياته، وكاشفة لغوامضه، وموضحة لمعانيه، وشارحة لألفاظه؛ وزادت بأحكام لا توجد في كتاب الله، مع كونها لا تخرج عن قواعده وأصوله الكبرى.

وللسنة مع القرآن ثلاث صور: مؤكدة ومبينة وزائدة.

الصورة الأولى: أن تأتي مؤكدة لآيات القرآن الكريم، فالسنة هنا موافقة للقرآن من كل وجه، فيكون توارد القرآن والسنة على الحكم الواحد من باب تضافر الأدلة، ويكون للحكم دليلان، دليل من القرآن، ودليل من السنة.

وتشمل هذه الصورة مثلا: الأمر بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، والنهي عن الشرك بالله، والزنا وشرب الخمر وأكل

الميتة والسرقة وشهادة الزور وعقوق الوالدين وقتل النفس بغير حق، وغير ذلك من المأمورات والمنهيات التي دل عليها القرآن والسنة معا.

مثال ذلك قوله ﷺ في حديث ابن عمر: (بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان) رواه البخاري. فهذا الحديث مؤكد لقوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [البقرة: 83]، ولقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: 183]، ولقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: 97].

الصورة الثانية: أن تأتي مبيّنة لكتاب الله ومفسرة له، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: 44].

وهذا البيان يأتي بصيغ مختلفة، منها:

- بيان المجمل: فقد جاءت كثير من أحكام القرآن مجملة، فبينت السنة إجمالها. من ذلك أن الله أمر بأداء الصلاة إجمالا، دون بيان لأوقاتها وأركانها وركعاتها وغير ذلك، فبينت السنة كل ذلك بفعل رسول الله ﷺ، وتعليمه لأصحابه، وأمره لهم بأدائها كما أداها، (صلوا كما رأيتموني أصلي) رواه البخاري.

وكذلك فرض الله الزكاة دون بيان لمقاديرها وأوقاتها وأنصبتها وما تجب فيه، فجاءت السنة ببيان كل ذلك وتفصيله. وكذا الحج، شرعه الله

دون أن يبين مناسكه، فبينه رسول الله ﷺ بقوله وفعله، وقال في حجة الوداع: (لتأخذوا عني مناسككم) رواه مسلم.

وكذلك الصوم والطهارة والذبائح والصيد والأنكحة والبيوع والجنايات وغيرها.

- تخصيص العام: فقد وردت في القرآن أحكام عامة جاءت السنة بتخصيصها، مثل قوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ ﴾ [النساء: 11]، فهو عام في كل أصل موروث، لكن خصص ﷺ ذلك بغير الأنبياء فقال: (لا نورث، ما تركنا صدقة) رواه البخاري.
- تقييد المطلق: فقد ورد في القرآن آيات مطلقة جاءت السنة بتقييدها، مثل قوله تعالى: ﴿ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ﴾ [النساء: 11]، فجاءت السنة مقيدة للوصية بالثلث.
- توضيح المشكل: فقد أشكل فهم بعض الآيات على الصحابة، فكان رسول الله ﷺ يوضح لهم ما أشكل عليهم. من ذلك ما رواه البخاري عن عبد الله ابن مسعود أنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ ﴾ [الأنعام: 82]، شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ وقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله ﷺ: إنه ليس بذاك، ألا تسمعون إلى قول لقمان ﴿ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾.

الصورة الثالثة: أن تأتي السـنة بأحكام زائدة على ما في القرآن، فتوجب أمراً سكت القرآن عن إيجابه، أو تحرم أمراً سكت القرآن عن تحريمه.

ومـن أمثلة هذا النوع: الأحاديث التي تحرم الجمع بين المرأة وعمتها والمـرأة وخالتهـا، وتحريـم الحُمـر الأهليـة، وكلّ ذي نـاب من السـباع، وتحريم لبس الحرير للرجال، ونحو ذلك.

فهـذا النـوع تشـريع مـن رسـول الله ﷺ تجـب طاعته فيـه، ولا تحل معصيته، امتثالاً لأمر الله تعالى بطاعة رسوله، كما سبق بيانه.

ولـو لـم يكن رسـول الله يطـاع في مثل هذا، لمـا كان للأمـر في القرآن بطاعته من معنى!

﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾

تأمل - أيها الحبيب - ما سألقيه عليك من الكلام، بعد أن تكون قد ألقيتَ دَبْر أذنيك بعض الشبهات الساقطة التي يغرسها حاقد أو جاهل، فلا تثمرُ إلا حقدا وجهلا!

اترك عنك قيل وقال، ولعل ويحتمل، وربما قد كان وربما لم يكن..

اترك عنك محاولة تحطيم الصخور الراسية، والجبال الثابتة، التي تتابعت قرون من النتاج المعرفي الرصين على ترسيخها..

وتأمل..

ألم يثبت لديك يقينا أن الله تعالى ختم الرسالات برسالة أرادها أن تكون مهيمنة على ما سبقها، وصالحة لتدبير شؤون البشر إلى قيام الساعة؟

ألم يثبت لديك يقينا أن الله تعالى قد أمر في كتابه العزيز بطاعة نبيه؟

ألم يثبُت لديكَ يقينا أنه لا سبيل لإدراك مراد الله تعالى، ولا لفهم دقائق الشريعة، إلا من طريق النبي الكريم؟

ألا ترى من البدهي أن ذلك كله لا يَتِمّ - بعد وفاة رسول الله ﷺ - إلا من خلال سنته المنقولة؟

فكيف يأمر الله بطاعة الرسول ولا يتكفل بحفظ أوامره التي يريدها أن تُمتثَل؟!

أليس التشكيك في السنة طعنا في الأمر القرآني الصريح بطاعة النبي واتباعه؟

تأمل هذا كله بعين الإنصاف، ثم اقرأ قوله تعالى:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: 9].

فالله تعالى تكفل بحفظ الذكر..

والذكر يشمل السنة، لأن كلام النبي ﷺ وحيٌ، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: 3-4].

ولو فرضنا أن الذكر لا يتناول السنة باللفظ، وأنه يشمل القرآن وحده، فإن حفظ القرآن يقتضي حفظ معناه؛ ومن جملة معانيه: الأحاديث النبوية الدالة على توضيح مبانيه، كما يقول بعض العلماء. فيكون الله تعالى - على الحقيقة - قد تكفّل بحفظ الكتاب والسنة معا.

وهذا الفهم، هو الذي عليه أئمة الدين في كل عصر، ويشهد له مثلا ما قاله عبد الله بن المبارك، حين سئل عن الأحاديث الموضوعة فقال: يعيش لها الجهابذة، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾. فاستدل بآية حفظ الذكر، على حفظ السنة من العبث بالزيادة أو النقص.

بل إن الذكر الذي يحفظه الله تعالى، يشمل أيضا العربية وجميع ما لا بد منه لمعرفة الحق. وذلك أن المقصودَ من حفظِ القرآن هو بقاء الحجة قائمة على الناس إلى قيام الساعة، فكل ما لا بد منه لقيام الحجة لا بد من حفظه بالتبع، وإن لم يشمله لفظ الذكر بالذات.

وما تكفل الله بحفظه، فإن حفظه مضمون، ولا يرتاب مسلم في أنه لا يضيع أبدا..

ما سبق ذكره: تقرير إجمالي عن ضرورة حفظ السنة، دون خوض في التفصيلات التطبيقية.

أما إذا أردتَ - يا صديقي العزيز - أن تنظر في التفصيل، فاعلم أنك ستخوض بحرا زاخرا من العلم، تجد فيه الحفظ والذكاء والتدقيق والتحرير والإنصاف والإخلاص والحرص والهمة، وما شئت من أوصاف الخير التي يمتاز بها العلم الحق..

نعم..

إن شئت التفصيل، فعليك بعلم الحديث، رواية ودراية، شرحا ومصطلحا، معانيَ وغريبا، أسانيد ومتونا، تخريجا وتعليلا، تجريحا وتعديلا..

وليس هذا مقام ذلك، ولا عشر معشاره، ولكنني سأكتفي بأن أذكر لك رؤوس أقلام، هي محطات تعرف من خلالها تطور هذا الفن السامي:

- تلقى الصحابةُ السنةَ عن رسول الله ﷺ، وهم أفصح الناس ألسنة، وأعمقهم فهما، وأمضاهم قريحة، وأقواهم إيمانا، وأكثرهم إخلاصا، وأشدهم تشميرا في طلب العلم وبذله، وأعظمهم توقيرا ومحبة لرسول الله ﷺ؛ فحرصوا على كلامه حرص الشحيح على دراهمه، وأذعنوا لقول الحبيب ﷺ وخضعت له قلوبهم وسكنت أبشارهم، ودققوا في حفظ سنته القولية والفعلية تدقيق الصيرفي الماهر في تمييز صحيح الدنانير من بهرجها، وبذلوا في حفظ السنة وجمعها ثم في تبليغها وتعليمها

للناس الطارفَ والتالد، حتى رحل الصحابي مسيرة شهر لسماع حديث واحد!

- كان غالب اعتماد الصحابة في تلقي الحديث على المشافهة وحفظ الصدور، ولكن لم يمنع ذلك أن وجدت كتابة السنة منذ عهد النبوة. فعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: (كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش وقالوا: تكتب كل شيء ورسول الله بشر يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فأومأ بإصبعه إلى فيه، فقال: اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق) رواه أبو داود. وفي حديث أبي هريرة: (فقام رجل من أهل اليمن يقال له أبو شاه فقال: اكتب لي يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: اكتبوا لأبي شاه) رواه البخاري ومسلم.

وقد كتب العشراتُ من الصحابة، واشتهرت صحف كثيرة تشتمل على عشرات الأحاديث، مثل صحيفة أبي بكر في فرائض الصدقة، وصحيفة علي بن أبي طالب، والصحيفة الصادقة لعبد الله بن عمرو، وصحيفة جابر ابن عبد الله، والصحيفة الصحيحة التي يرويها همام عن أبي هريرة من حديثه، وغيرها.

وقد كتب التابعون من بعدهم، ثم كتب الأئمة الحفاظ، ورواة الحديث، حتى إن الإمام أحمد - وهو إمام في الحفظ ـ كان لا يروي حديثا إلا من كتابه..

هـذا مع أن الاعتمـاد على حفظ الصـدر لا يؤثر في الثقـة بالرواية، إن وُضعت القيود، وحُررت الضوابط، المانعة من الغلط، والمفيدة للاحتياط في إثبات السنة..

وهذا الذي سار عليه الأئمة في تصرفاتهم العملية.

- تلقى التابعون السـنة النبوية عن الصحابـة، وتلقاها عن التابعين أتباعهم، وهلم جرا: كل طبقة تأخذ عن الطبقة التي قبلها.

وبذل الرواة والحفاظ جهودا ضخمة في حفظ الحديث وروايته وكتابته والرحلة في طلبه؛ وأفنوا في ذلك الأعمار، وأنفقوا فيه الأموال الكثيرة، وأتوا بما دوّنَه التاريخ بحروف من ذهب، وبقي شـاهدا على عبقرية هذه الأمة في حفظ تراث نبيها، بما لا نظير له في الأمم الأخرى جميعها.

وبـدأ التفتيـش في أحوال الرجـال، والتدقيق في المرويات، وسـطرت كتـب الرجال والتراجـم والعلل، عجائـب في البحث العلمـي، وفق منهج دقيق شديد الإتقان.

- بدأ جمـع الأحاديث في دواوين مخصوصـة، في مرحلة متقدمة. فقد ذكر المؤرخون أسماءَ كتب حديثية في القرن الأول الهجري، كانت متداولة بين علماء القرنين الثاني والثالث الهجريين.

ثم جـاء علماءُ آخـرون وجـدوا أمامهم ثـروة حديثية هائلـة، يتناقلها الـرواة بقدر عال من الدقـة المنهجية، فأعملوا في هذه الثروة معايير الانتقاء والترتيـب، وجمعوا منها مؤلفـات كتب الله لها القبول والانتشـار، مصنفة بمعيـار الصحـة مثل صحيحـي البخاري ومسـلم، أو مرتبة علـى الأبواب

الفقهية مثل سنن أبي داود والترمذي، أو على رواة الأحاديث من الصحابة مثل مسند أحمد، أو على غير ذلك.

فلم يكن البخاري مثلا مدوِّنا لأحاديث كانت محفوظة في الصدور - كما يظن ذلك أقوام - أو مخترعا لأحاديث يرويها عن رسول الله ﷺ لم يكن يعرفها الناس في زمنه - كما يحسب ذلك أقوام آخرون -، وإنما كان ناقلا للأحاديث كغيره من الأئمة الحفاظ، ناقدا لها، قادرا على تمييز صحيحها من سقيمها، امتاز عن غيره بجمع أحاديث مخصوصة في ديوان واحد، وفق معيار منهجي للتصحيح، يمتاز بالدقة والصرامة.

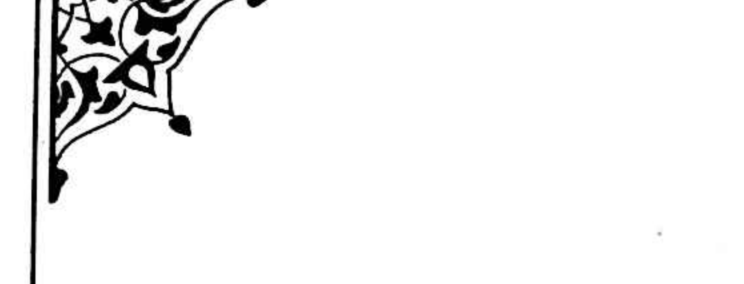
فقط.. لا غير..

فافهم هذا - يا صديقي - واحذر من الجهالات المُردية..

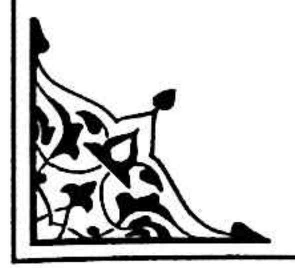
- جاء أئمة آخرون فجمعوا مصطلحات المحدثين، وقواعد التعليل، وأصول التخريج والحكم على الأحاديث، وضوابط الجرح والتعديل، وتراجم رواة الحديث، واعتنوا بشرح دواوين السنة المعروفة، وتتبع غريبها وفقهها، وغير ذلك مما يصعب إحصاؤه.

فاجتمعت من ذلك كله ثروة علمية هائلة، تحقق بها حفظ الله لوحي السنة..

والحمد لله على نعمه.




والذين معه




من كان منكم متأسيًا فليتأس بأصحاب محمد ﷺ فإنهم كانوا أبرّ هذه الأمة قلوبًا وأعمقها علمًا وأقلها تكلفًا وأقومها هديًا وأحسنها حالا، قوم اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه ﷺ فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم.

عبد الله بن مسعود (جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر 97/2)

إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول ﷺ عندنا حق، والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله ﷺ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة!!

أبو زرعة الرازي (الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي ص58)

تراهم ركعا سجدا

والآن - أيها الخلّ الوفي - وقد قطعنا في رحلتنا هذه أشواطا بعيدة، وأشرفنا على بُغيتنا التي بدأنا رحلتنا من أجلها، كأني بك تغالب سؤالا يلح على لسانك، ويودّ الانعتاق من بين شفتيك:

كيف قامت دعوة الإسلام، تحث الناس على التوحيد ونبذ الشرك وتحطيم الأصنام المادية والمعنوية، وسط بيئة عربية مناوئة، وبين قوم ليسوا من أصحاب التمدن والحضارة، ثم ما لبثت هذه الدعوة إلا سنوات معدودة، حتى انتشرت في أصقاع الأرض من تخوم الصين إلى ساحل بحر الظلمات، وتملّكت القلوبَ والنفوس في تلك الأصقاع، حتى صار أهلُها - بِدَورِهم - دعاةً إلى الإسلام، مجاهدين في سبيله؟

نعم..

حُقَّ لك أن تسأل، فإنه حدث عجيب في تاريخ الإنسانية، لا يوجد له نظير..

قد رأينا في التاريخ أقواما يحتلون مناطق شاسعة من الأرض بقوة السلاح، ورأينا أقواما آخرين يرحلون في الدعوة إلى أفكارهم ومبادئهم مُددا طويلة إلى بلاد مختلفة فيفلحون تارة ويفشلون أخرى..

ولكننا ما رأينا من جمع بين الأمرين، وفي برهة يسيرة من الزمن، لا تعدّ شيئا إذا قيست بأعمار الحضارات والدول!

نعم..

حُقَّ لك أن تسأل، ووجب عليَّ أن أجيب:

في الأمر سرٌّ عجيب..

ولكنني سأخبرك به - أيها الحبيب..

إنه سر اسمه: "الصحابة"..

أتدري من "الصحابة"؟

هم رجال ونساء لم يكونوا على شيء من العلم، ولكن كانت لهم قابلية فطرية لتعلم العلم، والبذل في العمل؛ ثم دخلوا مدرسةً علمية عملية، وارفة الظلال، سامقة الأركان، مضيئة بأنوار الوحي، يضوع في جنباتها نفح النبوة..

وكان القائم على هذه المدرسة، تعليما وتربية، وإرشادا وتزكية، هو سيد الخلق وأفضلهم وأعلمهم وأزكاهم وأطهرهم وأقربهم من رب العزة ﷺ..

فمَن جالس هذا الحبيب، الذي هذا نعتُه، دقائقَ معدودة من عمره، كيف تُراه يكون؟!

فما ظنك بمن خالطه سنوات، في حله وترحاله، في صلاته وحجه، في بيته ومسجده، في سلمه وجهاده؟!

نعم..

هذا سرُّ السرّ..

إن كان "الصحابةُ" سرَّ ذلك الانتشار الدعوي الضخم والسريع، فإن

سرَّ الصحابة كونُهم صحبوا أنفاس ذلك النبي الكريم..

أو قل: سرُّهم أنهم "صحابة"..

وكفى بهذا العنوان فخرا..

- يقول الله سبحانه: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ [الفتح: 29].

فانظر إلى هذه الصفات التي أعيت الأجيال التالية أن يأتوا بمثلها، بل أن يقتربوا منها!

- وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: 74].

هجرة وجهاد، وإيواء ونصرة..

ونتيجة ذلك: شهادة بالإيمان الحق، من بارئ الخلق!

- وقال تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: 100].

رضوا عن الله، ورضي عنهم الله، وجعل لهم عنده ثوابا عميما، وجزاء عظيما..

- وقال تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ [التوبة: 117].

توبةٌ من الله، جزاء من الله سبحانه على صبر القوم وبذلهم واتباعهم النبي ﷺ في أصعب الأحوال وأضيقها..

- وقال تعالى: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ [الفتح: 18]، وأكد النبي ﷺ ذلك بقوله: (لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة) رواه الترمذي.

- وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ ﴾ [الحشر: 8-9].

فريقان من الصحابة، جمعا لُباب الفضل وأُسّه:

فريق الهجرة، والتخلي عن الدنيا، والإخلاص لله تعالى وابتغاء مرضاته، ونصرة الله ورسوله؛

وفريق الإيثار والإيواء والنصرة والمحبة..

فهنيئا للفريقين..

وهنيئا لمن أحب الفريقين.

وقد جمع الصحابة من الفضائل والمناقب، ما تنوء به الطروس، وتعيى به الألفاظ..

كانوا جبالا في التقوى والورع والزهد في الدنيا..

وكانوا نماذج تحتذى في كثرة العبادة مع الإحسان والإتقان..

وكانوا رؤوسا في العلم والحفظ وجودة القريحة وسيلان الذهن..

وكانوا نجوما يهتدى بها في الدعوة وهداية الناس والحرص على تعليمهم..

وكانوا فلتات في التضحية والجهاد وبذل المهج في سبيل الله..

وكانوا قواعد صلبة في الالتزام بالسنة وكراهة البدع والمحدثات، وترك فضول الكلام، وهجر المراء في الدين..

وكانوا..

وكانوا..

ولأجل ذلك، استحقوا ما سبق ذكره من آي القرآن، واستحقوا ثناء رسول الله ﷺ عليهم، في مثل قوله: (لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مُدّ أحدهم ولا نصيفه) رواه

البخاري ومسلم، وقوله: (الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضا بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه) رواه أحمد، وقوله: (إن الله تعالى اطلع على أهل بدر فقال: "اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم") رواه مسلم، وغير ذلك كثير..

وقد كان الصحابة يحبون رسول الله ﷺ ويجلّونه ويعظمونه، فقد قال عمرو بن العاص: (وما كان أحدٌ أحب إليّ من رسول الله ﷺ، ولا أجلَّ في عيني منه، وما كنت أطيقُ أن أملأ عيني منهُ إجلالا له، ولو سئلتُ أن أصفه ما أطقت، لأني لم أكن أملأ عيني منه).

وروى الترمذي عن أنس أن رسول الله ﷺ كان يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار وهم جلوس فيهم أبو بكر وعمر، فلا يرفع أحدُ منهم إليه بصره إلا أبو بكر وعمرُ، فإنهما كانا ينظران إليه، وينظر إليهما، ويبتسمان إليه، ويبتسمُ لهما.

وروى أسامة بن شريك قال: (أتيت النبي ﷺ وأصحابه حوله، إذا تكلم أطرق جلساؤه وكأنما على رؤوسهم الطير).

وحين وجّهت قريش عروة بن مسعود إلى رسول الله ﷺ، رأى من تعظيم أصحابه له أمرا عجبا: لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوئه وكادوا يقتتلون عليه، ولا يبصق بصاقاً ولا يتنخم نخامة إلا تلقوها بأكفهم، فدلكوا بها وجوههم وأجسادهم، ولا تسقط منه شعرة إلا ابتدروها، وإذا أمرهم بأمر

ابتـدروا أمـره، وإذا تكلـم خفضوا أصواتهم عنـده، وما يُحِـدُّونَ إليه النظر تعظيماً له..

فهنيئا لهم الصحبة..

وهنيئا لهم المحبة..

وكلا وعد الله الحسنى

ليس الصحابة على درجة واحدة في الفضل، ولا مرتبة واحدة في العلم أو العمل.

هم متفاوتون في الفضل، لكنهم مشتركون في حد أدنى منه، يفوق الذي عند مَن بعدهم من طبقات المسلمين.

فأقلُّ الصحابة فضلا، خير من التابعين وأتباعهم، لا لشيء إلا لشرف الصحبة. وأين مثل الصحبة في المكارم والمناقب؟!

﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الحديد: 10].

فالتفاوت بينهم حاصل، ولكنهم موعودون جميعا بالحسنى: جنات عدن عند الكريم سبحانه..

أفضل الصحابة إجمالا هم السابقون الأولون من المهاجرين، ثم من الأنصار، ثم أهل بدر، فأهل أحد، فأهل بيعة الرضوان، ثم من بعدهم.

وأما أفضلهم تفصيلا، فأبو بكر الصديق، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان ابن عفان، ثم علي بن أبي طالب - رضي الله عن الجميع. على هذا أجمع علماء أهل السنة، مع خلاف يسير في المفاضلة بين عثمان وعلي رضي الله عنهما.

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (كنا في زمن النبي ﷺ لا نعدل بأبي بكر

أحدا، ثم عمر، ثم عثمان، ثم نترك أصحاب النبي ﷺ لا نفاضل بينهم).

وثبت لأبي بكر عدد كبير من الفضائل، منها سبقه إلى الإيمان، ومصاحبته النبي ﷺ في الهجرة، وهو يقول له: (ما ظنك باثنين اللهُ ثالثهما):

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: 40].

وقال رسول الله ﷺ: (لو كنت متخذا من أمتي خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا) رواه البخاري ومسلم، وقال ﷺ: (إن الله بعثني إليكم فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي) رواه البخاري.

وأما عمر بن الخطاب فهو الوزير الثاني، فاروق هذه الأمة، الذي كان إسلامه فتحا، وكانت هجرته نصرًا، وكانت خلافته رحمة.

قال النبي ﷺ: (إيها يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا قط إلا سلك فجا غير فجك) رواه البخاري ومسلم؛ وقال رسول الله ﷺ: (لقد كان فيما قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر) رواه البخاري ومسلم.

وقال رسول الله ﷺ في تكلم الذئب والبقرة: (فإني أومن به وأبو بكر وعمر) رواه البخاري ومسلم؛ وقال أيضا: (اقتدوا بالذين من بعدي من أصحابي أبي بكر وعمر) رواه الترمذي.

وأمـا عثمـان بن عفـان فمـن مناقبه أنـه حين ذهـب إلى مكـة في بيعة الرضوان قال رسـول الله ﷺ بيده اليمنى: (هذه يد عثمان، فضرب بها على يـده فقال: هذه لعثمان) رواه البخاري؛ وقـال ﷺ: (من يحفر بئر رومة فله الجنة) فحفرها عثمان، رواه البخاري؛ وقال ﷺ: (من جهز جيش العسـرة فله الجنة) فجهزه عثمان، رواه البخاري؛ وقال ﷺ فيه: (ألا أسـتحي ممن استحيت منه الملائكة) رواه مسلم.

وأمـا علي بن أبي طالب ﷺ، فقال له ﷺ: (أنت مني وأنا منك) رواه البخاري؛ وقال ﷺ عنه (إنه يحب الله ورسـوله، ويحبه الله ورسـوله) رواه البخـاري ومسـلم؛ وقـال ﷺ أيضـا: (من كنت مـولاه فعلي مـولاه) رواه أحمـد؛ وقال ﷺ: (ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسـى، إلا أنه لا نبي بعدي) رواه البخاري ومسلم.

ووردت أحاديث كثيرة في مناقب صحابة مخصوصين، مثل قوله ﷺ في بيان العشرة المبشرين بالجنة في حديث واحد: (أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسـعد بن أبي وقاص في الجنة، وسـعيد ابن زيد في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة) رواه الترمذي؛ وقال ﷺ: (أرحـم أمتـي بأمتـي أبو بكـر، وأشـدها في ديـن الله عمر، وأصدقهـا حياء عثمـان، وأعلمها بالحلال والحـرام معاذ بن جبل، وأقرؤها لكتاب الله ﷺ أبـي، وأعلمها بالفرائض زيد بن ثابت، ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح) رواه الترمذي.

ووردت أحاديث مخصوصة كثيرة في فضائل أمهات المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين وغيرهم.

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ﴾

الصحابة هم أفضل الناس في هذه الأمة، وقد جمعوا من الصفات، وثبت لهم من المناقب، ما لم يثبت لغيرهم.

ولكن لا يقتضي ذلك أنهم معصومون من الخطأ، بل الخطأ جائز عليهم، واقع منهم؛ ويكون في إدراك الحكم الشرعي استنباطا أو تنزيلا.

والمراد بالخطأ في الاستنباط: ما يقع للمجتهد عموما من الذهول عن الدليل الشرعي، أو عن وجه الدلالة منه، أو الغلط في إعمال قواعد الاستدلال، أو غير ذلك مما اعتنى الأصوليون بتسطيره.

والمراد بالخطأ في التنزيل: ما يقع للمجتهد عند تنزيل الحكم الشرعي على الواقع، ويكون ذلك لأسباب كثيرة.

فمن القسم الأول: ما تنقله كتب الفروع من خلافهم في أحكام العبادات والمعاملات، بين مبيح ومحرّم، ولكلٍّ دليله الشرعي المعتبر الذي يستند إليه. وهذه الاجتهادات الفقهية هي التي كانت الأساس لاجتهادات أئمة الفقه من بعد، وكان خلاف الصحابة فيها أساسا لمدارس الفقه ومذاهبه المختلفة.

ومن القسم الثاني: اجتهاداتهم عند حدوث الفتن فيما بينهم، منذ أواخر خلافة عثمان رضي الله عنه إلى عام الجماعة الذي تنازل فيه الحسن رضي الله عنه عن الخلافة.

والصحابة في الصورتين معا: مجتهدون يمتلكون مؤهلات الاجتهاد، ويستفرغون فيه وسعهم، مع الورع والتقوى؛ فمن أحقُّ منهم بالحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو مرفوعا: (إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر)؟!

هذا في المجتهد عموما، فكيف إن كان المجتهد يمتلك من الفضائل السابقة واللاحقة، والمناقب السامية السامقة، ما يمحو الزلل، ويزيل الخلل؛ على قاعدة منح السيئات القليلة للحسنات الكثيرة، وعدم تغير البحر الخضم بيسير النجاسة إن وقعت فيه..

كما أنهم في الصورتين معا: لا يُجمعون على خطأ، بل عصم الله الأمة من ذلك؛ فإذا أخطأ أحدهم، خالفه غيره من أقرانه، فكان للناظر في الأمر مجال لاتباع الصواب، دون مخالفة قول الأصحاب..

وقد وقع لجماعة من الوعاظ والدعاة المعاصرين الخلل في تقرير فضائل الصحابة، فتراهم يذكرون المناقب دون تقرير معنى كونهم غير معصومين، ولا تقرير إمكان وقوع الخطأ الاجتهادي منهم.

وينتج من تشبع بعض عوام المسلمين بهذا الخطاب، أنهم إذا خالطوا أهل البدع والضلالات القديمة والعصرية، الذين يجعلون أساس دعوتهم ثلب الصحابة، فحدَّثهم هؤلاء ببعض ما وقع من الصحابة من الأخطاء أو الذنوب - سواء أثبت ذلك عنهم أم لم يثبت - فإن إيمان أولئك العوام يتزعزع، ويحسبون أنهم اكتشفوا سرا عجيبا كان علماء الأمة يخفونه عنهم!

وكم رأينا ممن صار مآله إلى الزندقة أو الإلحاد، وإنما كان مبدأ أمره الطعن في الصحابة تأثرا بهؤلاء المضلين الفتانين، بسبب عدم إدراكه لهذا المعنى الذي قررتُه لك هنا.

والمنهج العلمي الذي يجب على المسلم اتباعه في التعامل مع صحابة رسول الله ﷺ مكون من محاور ثلاثة:

- أولها: الإمساك عما شجر بين الصحابة، وسلامة القلوب والألسنة لهم، والدعاء لهم بالمغفرة، ونشر فضائلهم والكف عن مساوئهم، والتنويه بشأنهم كما نوّه تعالى بذكرهم في كتبه، واستحضار كونِهم نقلة هذا الدين وحُماته الأولين.

وجماع ذلك ما جاء في القرآن الكريم، بعد ذكر المهاجرين والأنصار:

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الحشر: 10].

- والثاني: إذا وردت على المسلم روايةٌ فيها وقوع بعض الصحابة في ذنب أو خطأ، فليبدأ بتحريرها من جهة الثبوت، ناظرا في إسنادها وفي كلام أئمة الشأن فيها. فما أكثر الروايات التي يرويها أهل الضلال لثلب الصحابة والتنقص منهم.

- والثالث: إذا ثبتت الرواية من جهة الإسناد، فليحرر دلالتها، وليدقق في معناها. فإذا ثبت لديه أنها تدل على وقوع الصحابي في ذنب أو خطأ، فليقل: أخطأ الصحابي أو أذنب، فكان ماذا؟!

ومتى زعمنا أنهم معصومون من ذلك؟!

فغايـة الأمـر أن الصحابي الجليـل وقع في ذنب مغفـور، أو في اجتهاد مأجور..

فلا ينقص ذلك من منزلته شيئا، وإنما يؤكد بشريتَه وعدمَ عصمته..

وانتفاءُ العصمة لا يقتضي انتفاء الفضيلة، ولا الهبوط في المنزلة.

رضي الله عن صحابة رسول الله أجمعين، وألحقنا بهم غير مبدّلين.

لقوم يتفكرون




بعض المؤرِّخين قدَّر ما أتلفه الصليبيون في طرابلس وحدها بثلاثة ملايين مجلد..

مصطفى السباعي (من روائع حضارتنا - ص 162)

ومن له ذوق في الشريعة، واطلاع على كمالاتها وتضمنها لغاية مصالح العباد في المعاش والمعاد، ومجيئها بغاية العدل، الذي يسع الخلائق، وأنه لا عدل فوق عدلها، ولا مصلحة فوق ما تضمنته من المصالح: تبين له أن السياسة العادلة جزء من أجزائها، وفرع من فروعها، وأن من له معرفة بمقاصدها ووضعها وحسن فهمه فيها: لم يحتج معها إلى سياسة غيرها ألبتة.

فإن السياسة نوعان: سياسة ظالمة فالشريعة تحرمها، وسياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر، فهي من الشريعة، علمها من علمها، وجهلها من جهلها.

ابن القيم (الطرق الحكمية ص4)

لكن أيضا، كل شخصٍ منغمسٍ بشكلٍ جدي في السعي وراء العلم يصبح مقتنعا بأن بعض روحٍ تتجلى في قوانين الكون، روحٌ أكثر تفوقًا بكثيرٍ من كل النوع البشري. بهذه الطريقة يقودنا السعي وراء العلم إلى شعورٍ ديني من نوعٍ خاص، والذي هو بالتأكيد مختلفٌ تمامًا عن تدين أيشخصٍ أكثر سذاجة.

ألبرت اينشتاين من رسالته المشهورة إلى الطفلة فيليس

﴿ ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم ﴾

---عن الفكر---

إن الحاجة اليوم إلى البحث العقدي والفكري قائمة وملحّة، وذلك لأسباب كثيرة منها:

- صعوبة هذه المسائل، وخطورة الخطأ فيها، لما يترتب عليه من النتائج الكارثية.
- التعقيد البالغ في هذه المباحث، لأن عصرنا هو عصارة بالغة التعقيد للعصور السابقة، مع ما طبعها من الأديان والفلسفات والمذاهب الإنسانية.
- التأثيرُ الإعلامي الكبير على مسار الأفكار، فما أكثر الموضوعات التي يفتعل الإعلام النقاش حولها، وما أكثر الأفكار التي تفرض نفسها لما في عرضها الإعلامي من التزويق والإثارة.
- انتشار مواقع التواصل الاجتماعي، التي تُغري غير المتخصصين بالكلام في الموضوعات الفكرية، وفي ذلك أعظم الضرر على الفكر الرصين.

وقد أمر الله سبحانه الناس بالتفكر، وأثنى على المتفكرين، وجعل التفكر عبادة قائمة غايتها الاستفادة من الآيات الكونية الباهرة، لتحصيل الإيمان بمبدعها سبحانه:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: 12].

﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: 191].

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: 44].

فإعمال العقل في الفكر مطلوب في الإسلام، ولكن ذلك ينبغي أن يكون لغاية نبيلة موافقة لمقاصد الإسلام، وفي إطار الضوابط العامة التي تضعها الشريعة..

نعم..

حين يدخل المسلم إلى حمى الإسلام، مطيعا مختارا، خاضعا لحكم الله، فإنه لا يمكن أن يسمح لفكره بأن يسيل في كل واد، ويذهب كل مذهب!

المفكر المسلم لا يمكن أن يذبح إسلامه على نُصب فكره..

بل هو لا ينسى أنه مسلم قبل أن يكون مفكرا..

وهذا أمر يتجاهله بعض الناس في التنظير، تقديسا منهم لقيمة الحرية، وإعلاء منهم لمكانة العقل، ولكنهم يغفلون عن أن الناس أجمعين حين يفكرون فإنهم لا ينطلقون من أرض خلاء، بل من أفكار أولية منسبقة، قد يكون منبعها من الدين، وقد يكون من التربية أو المجتمع أو المؤهلات الفردية أو المشاعر الشخصية، أو غير ذلك.

فالفكر كله ذاتيّ، وإن كان يُظهر نفسه في صورة الموضوعي..

وإذن - يا صديقي -:

لا تحسب أنك في مجال الفكر، يمكنك أن تكون «محايدا»، تكتفي بجمع المعلومات وتحليلها، دون أن تنطلق في ذلك من حمولة معرفية تستند إليها، ومن شبكة قراءة تأويلية شرعية تستعملها عند تحليل المعلومات، وتوليد الأفكار ومناقشتها.

لا بد لك - قبل أن تتعنى البحث الفكري - من أن تملأ وِطابك بزاد معرفي يحميك من التأثر المتقلّب بماجريات الأحداث المتسارعة.

لا بد لك من دراسة علم العقيدة، لتضع الأسس الشرعية لفهم الكون والإنسان، وارتباطهما بالخالق سبحانه..

ولا بد لك من قدر من علم أصول الفقه، لتفهم الطرائق الشرعية في الاستدلال المنضبط، وتتجنب نقل السيلان الفكري الفلسفي إلى المباحث الفكرية الإسلامية..

ولا بد لك من إطلالة معتبرة على علم الفقه، لتعرف مواضع الإجماع والخلاف، ومواطن الظن واليقين، وتفهم طريقة الفقهاء في التعامل مع بعض المباحث المرتبطة بالفكر الحديث مثل فقه الأسرة وفقه الجهاد والسياسة الشرعية - وما أكثرَ غلط المتكلمين في الفكر اليوم بسبب الجهل بالفقه التراثي!

ولا بد لك من دراسة حد أدنى من علوم القرآن وعلوم الحديث، لتفهم

منهج علماء المسلمين في الحفظ والكتابة والضبط والجمع والتفتيش وتحقيق الأسانيد وضبط المتون، ونحو ذلك مما يخبط الجهلة فيه اليوم خبط الناقة العشواء، في الليلة الظلماء!

ولا بد من دراسة التاريخ عموما، والتاريخ الإسلامي خصوصا، من مصادره الموثوقة المتحلية بالإنصاف والتحري، بعيدا عن بريق الأدلجة، وضجيج الانحرافات..

وإن من أعظم الإفساد المستشري في الأمة اليوم: المؤلفون الذين يكتبون في الفكر الإسلامي دون معرفة شرعية كافية!

فتراهم يزهّدون في العلم الشرعي، ويطعنون في التراث الفقهي والعقدي، ويتسوّرون الشرح والتفسير والتصحيح والتضعيف والتعليل بمحض التشهي..

ثم تراهُم - لعجزهم عن تأسيس منهج معرفيّ منضبط ومتكامل - يهرُبون إلى التشكيك وتقديس السؤال والقول بنسبية الحقائق.

...عن التراث...

لقد فهمنا ضرورةَ الانطلاق في البحث الفكري من حمولة معرفية، وذكرنا أن لبّ هذه الحمولة هو التراث العقدي والفقهي..

ولكن قد فَهِم الخصوم ذلك أيضا، وعلِموا مكانةَ التراث من المنهج الفكري الإسلامي، فسعوا جهدهم إلى إزاحة هذه العقبة الكأداء، وحرمان أهل الخير من هذا السلاح العظيم في النقاشات الفكرية..

فهموا - كما فهمنا - أن التراثَ ضروري لتأسيس الفكر الإسلامي المعاصر، المنضبط بالشرع، والقادر على مواجهة الواقع الحديث؛ إذ لا يُفهم الحاضر ولا يُبنى المستقبل، إلا بحسن تدبر الماضي؛ ولا يبنى المعمار الباذخ إلا على أساس راسخ!

ولأنهم فهموا ذلك، فقد أجلبوا بخيل الشبهات ورَجلها على التراث، طعنا وقدحا وتحقيرا وانتقاء..

ونحن لسنا ندّعي العصمة لهذا التراث في جميع تفصيلاته، ولكننا لا نرضى أن يُهدم هذا البنيان بمجرد الدعاوى!

نحن نعتقد أنك لن تجد في التراث الفقهي داء إلا وجدت فيه دواءه!

ولست أعرف فقهاء الأمة قد اجتمعوا على باطل، يخالف العقل، أو يفسد المجتمع، أو ينتهك كرامة الأفراد.

وذاك الذي يرهق نفسه بالبحث، حتى يظفر بقول شاذ لعالم من العلماء، فيبرزه لعامة الناس مستهزئا مستنكرا، ليستدل بذلك على ضرورة "تنقيح التراث"، هو رجل مسكين!

وهل زعم أحد من الناس أن علماء الأمة معصومون، وأن اجتهاداتهم كلها صواب؟

إن وُجدت في تراثنا أدواء،

ففي تراثنا أيضا يوجدُ الدواء..

وإن أخطأ العالِم، صوّب خطأه عشرات العلماء..

أما أن يوجد في التراث:

نص صحيح، ذو معنى مفضول..

أو إجماعٌ صريح، على غلط مرذول..

فهذا المحال الممتنع، الذي لا سبيل إليه، إلا بمعونة من:

فهم كاسد، أو قلب مريض..

والناس اليوم في تعاملهم مع التراث أصناف:

- الصنف الأول: قوم يأخذون التراث بحذافيره، لا يرفضون منه شيئا، بل يعتقدون العصمة في كثير من تفصيلاته.
- والصنف الثاني: قوم ينتقون من التراث ما يلائم أهواءهم، أو ما يناسب رغبات الثقافة المهيمنة.
- والصنف الثالث: قوم يردّونه مطلقا، ويسعون لهدمه دون بذل الجهد في تقديم بديل يقوم مقامه.

أما الأولون، فلب الإشكال عندهم خلطهم بين أجزاء التراث، وجمعهم ذلك كله في مرتبة واحدة، لا يفرّقون بين الوحي وفهمه، ولا بين الخلافي والإجماعي، ولا بين الثوابت القطعية والمتغيرات الاجتهادية. وإذ رأوا الخصوم يطعنون في التراث كله، فليكن دفاعهم عن التراث كله!

والحق أن هـذا من الغلو المرفوض، فالـتراث الفقهي والعقدي ليس كله معصوما، وليسـن نقده ممنوعا، بشرط العلم والعدل، وصحة المنطلق والمنهج، وعدم التعرض للثوابت والقطعيات.

وأمـا أصحـاب الطائفـة الثانيـة، فقـد شـابه فعلهم مـا حـذر علماؤنا المتقدمـون منه حيـن قالوا: "مَن تتبـع الرخص فقد تزنـدق"، أو "من تتبع الرخص اجتمع فيه الشر كله"!

فالمنتمي لهذه الطائفة يلج بيت العلم من كوّة في أعلى الجدار، فيجمع مـن التراث الفقهي الأقوالَ التي تلائم هواه، وتناسـب المجتمع العصري، ثم يتبناها مستدلا بورودها عن بعض علماء الأمة، محتجا باختلافهم!

فتعاملُـه مع التراث براجماتي خالص: يرجع إليه عند الحاجة لتسـويغ أفعاله التي منشـؤها الهوى، أو الثقافة العلمانية الغربية المهيمنة على عالم الأفكار اليوم؛ ويسـتعمل في ذلك انتقائية فجة، يختار ما يشـاء، ويستبعد ما يخالف هواه!

نعم..

يمكنك أن تأتي عن كل عالم بقول أو أقوال غريبة عجيبة..

ولكنك لن تجد عالما اجتمعت فيه الأقوال الغريبة كلها..

فمن خالف الحق هنا، وافقه هناك..

ومن تساهل في هذه، تشدد في تلك..

والتراث الخلافي يؤخذ في جملته، وينظر في أدلته، ولا يستدل بالشاذ من الأقوال، بمحض التشهّي دون نظر واستدلال..

وأما الطائفة الثالثة فسعيها كله في الهدم دون منهج علمي، ولا غاية واضحة، ولا بديل قائم!

والحق أن المشروع العلمي المبني على هدم مشروع سابق أو إعادة إنتاجه، لا يكون محترما وقابلا للاستمرار إلا إن استثمر جهودا ضخمة في التطبيق العملي للتأصيلات النظرية التي يطرحها.

فالقائلون بوجوب هدم التراث الفقهي والعقدي القديم، وإنشاء آخر يتماشى مع روح العصر، يحتاجون إلى اقتراح بديل عملي لتعويض البناء الذي يريدون هدمه، وأن يكون هذا البديل شاملا لجميع أبواب الفقه والعقيدة تفصيلا.

ومن المعلوم أن الهدم سهل ومريح، ولكن الشأن كله في البناء..

وأكثر مَن رأيتُهم يسلكون هذا الطريق، وجدتُ عندهم الآتي:

- غياب المنهج العلمي المسلوك لتنقيح التراث أو إعادة تأسيسه من جديد. وإنما غاية ما يوجد عندهم: شعارات جوفاء لا طائل وراءها (مثل: التجديد، والتنقيح، ونحوهما)، والدعاوى فيها أعظم من البراهين..
- التمثيل ببعض ما يوجد في التراث من الأخطاء (مع أنه يوجد

فيه عكسها أيضا)، مع غض الطرف عن أن ذلك قليل من كثير، واستثناء من أصل.

- التهويل واستدرار عواطف المتلقي المبتدئ المتشبع بقيم الثقافة المهيمنة، التي يصهر الإعلام عقله في بوتقتها.
- غياب التطبيق الشامل، إذ التنظير المجرد قد يُخفي في أحيان كثيرة بعض العيوب المنهجية التي تظهر عند التفصيل والتطبيق.

والمطلوب ممن يدعو إلى تنقيح التراث أو هدمه: منهج أصولي متكامل، يضبط آلية الاستدلال الفقهي، ويتضح بالنظر فيه وضبطِ قواعده، ما يجب حذفه من تراث الأمة، وما يصح إبقاؤه؛ مع عمل تطبيقي شامل للأبواب العقدية والفقهية يظهر منه صلاحية ذاك المنهج الأصولي، وسلامته من الخلل.

وما دام ذلك غير موجود، فإنما هو كلام لا أثر له!

وأمرهم شورى بينهم

إن من أعظم المباحث الفكرية التي ينشغل بها المسلمون اليوم، ما يتعلق بالسياسة الشرعية وعلاقتها بالسياسة الحديثة، والعلاقة بين الحاكم والمحكوم في الإسلام.

ونحن - يا صديقي - في هذه الرحلة نضع العلامات التي تبين الطريق، وترشد إلى الصواب، وتحث على التفكر والبحث؛ وليس من غرضنا ولا في وُسعنا أن نعرض التفصيلات، ولا أن نخوض في النقاشات.

فتفكر معي في ما سألقيه عليك من المحاور التي لا بد من استحضارها في هذا الموضوع، لأنها لبه وأساسه، ومع ذلك فما أكثر الغافلين عنها!

إن الولاية أو الإمارة - كبيرة كانت أو صغيرة - هي أمانة ثقيلة، ومسؤولية عظيمة.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته؛ فالإمام راع ومسئول عن رعيته) رواه البخاري ومسلم. وقال أيضا عن الإمارة: (إنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها) رواه مسلم.

وإن المقصود الأعظم من جميع الولايات في الإسلام، هو أن يكون الدين كله لله..

فحفظ الدين هو الأمانة التي على الحاكم أن يعتني بها أعظم العناية، ويجعلها أولويته العظمى، التي يهون في سبيلها كل شيء آخر..

وأساس حفظ الدين: تحكيم شريعة رب العالمين..

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴾ [النساء: 59-60].

فذمهم الله تعالى لدعواهم الإيمان بالكتب المنزلة، مع كونهم يتركون التحاكم إلى الكتاب والسنة، ويتحاكمون إلى ما يعظمونه من دون الله.

وقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾ [النساء: 65].

وقال تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ﴾ [يوسف: 40].

وقال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: 47] - ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [المائدة: 45] - ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: 44].

وقال تعالى: ﴿ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ ﴾ [الشورى: 21].

والآيـات في هذا المعنى كثيرة، ومراجعة كلام المفسـرين عليها كفيل بترسيخ هذا المعنى الإجماعي الذي لا خلاف فيه.

ويدخل في تحكيم الشريعة أمور كثيرة، منها:

- إقامـة الحـدود والعقوبات الشـرعية، الثابتة في كتاب الله وسـنة رسـوله ﷺ؛ وقـد قال الحبيـب ﷺ: (لو أن فاطمـة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) - وحاشاها رضي الله عنها.

- إقامـة الواجبات التي فرضها الله تعالى، كالصلاة والزكاة والأمر بالمعـروف والنهـي عـن المنكر، كمـا قال تعالـى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج: 41].

- إقامـة العدل، ورفع الظلم عن النـاس، كما قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء: 58].

وغير ذلك كثير..

إن النصوص القرآنية والحديثية تدل على أن الحاكم المسلم رجل من المسلمين كلفته الأمة بتحمل أمانة الحكم، وما يقتضيه من مسؤوليات.

فالحاكم لا يحكم بحق إلهي - كما استقر عليه الأمر في الحكم الملكي الزمَني في أوروبـا خلال القـرون الوسـطى - تختلط فيه طاعـة الحاكم مع

طاعة الله تعالى، وتتجسد فيه إرادة الله من خلال إرادة الحاكم، وتكون فيه معارضة الحاكم معارضة لله أو للدين.

كل ذلك غير معروف في الإسلام من خلال نصوص الوحي، ولا من خلال التطبيق العملي للخلافة الراشدة.

فالكتاب والسنة هما مصدرا التشريع، والحاكم والمحكوم معا مطالبان بالخضوع لهما، وليس للحاكم أن يشرع من القوانين إلا ما لا يخالفهما. ولا يجوز صرف نوع من أنواع العبادة للحاكم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: 64].

وما ورد من وجوب طاعة ولي الأمر، فالمقصود به في ما هو طاعة لله، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الله تعالى، إنما الطاعة في المعروف.

وما أجمل ما أُثر عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه في أول خطبة له بعد البيعة: (أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيتهما فلا طاعة لي عليكم)!

والعلاقة بين الحاكم والمحكوم منضبطة في الإسلام بمبدأ "الشورى"، التي هي طاعة لله تعالى، واقتداء برسوله صلى الله عليه وسلم.

فقد أمر الله سبحانه وتعالى بها رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، فقال: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: 159]. وجعلها الله تعالى من صفات المؤمنين الصالحين، فأوردها بين ركنين عظيمين من أركان الدين هما: الصلاة والزكاة، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الشورى: 38].

وكان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه ﷺ في الأمور التي تنزل بالمسلمين، ولا يكون فيها نص لازم الاتباع، فقد استشار رسول الله الناسَ في الأسارى يوم بدر، واستشار أصحابه للخروج لغزوة أحد، وشاور عليا وأسامة في قضية الإفك..

والشورى في الإسلام ليست مطلقة، بل إنما تكون في إطار الشريعة، فلا تخرج عن النصوص الشرعية من القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة.

وإذا كان الحاكم والمحكوم منضبطين بالشريعة، لا يحلّ لهما الخروج عنها، فإن حرية الرأي والتعبير في الإسلام ليست مطلقة!

والرأي الذي يتبناه الإنسان، ينقسم ـ بحسب حكمه الشرعي ـ إلى أقسام خمسة، هي أقسام الحكم التكليفي. ويمكن اختزالها في ثلاثة أقسام:

- المشروع، وهو الواجب والمندوب.
- وغير المشروع، وهو الحرام والمكروه.
- والمباح، وهو المخيَّر فيه.

فأما القسم الأول، فلا يجوز للحاكم أن يمنعه، بل عليه أن يمنع تركَه والتفريط فيه. ويدخل في هذا النوع الرأيُ السياسي المشروع، كمحاسبة العمال والحكام، وانتقاد عملهم وتقديم النصح لهم، وعموم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونحو ذلك. كما تدخل الآراء الفقهية الاجتهادية، فليس للحاكم أن يحمل الفقهاء على قول واحد، أو يمنع أقوالا فقهية مخصوصة، ما دامت تدخل في دائرة المشروع.

وقد سُئل رسول الله ﷺ: أي الجهاد أفضل؟ فقال: (كلمة حق عند سلطان جائر) رواه أحمد والنسائي؛ وقال أيضا: (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه) رواه أحمد والترمذي وأبو داود.

وأما القسم الثاني، فيندرج فيه جميع الآراء المنهي عنها شرعا، وعلى رأسها: الكفر والبدع والطعن في شعائر الله ونشر الفواحش والقذفُ والسب وما أشبه ذلك. فهذا النوع يجب على الحاكم منعه، ويدل على ذلك أمور، منها:

- وجوب النهي عن المنكر على عامة المسلمين - والحاكمُ منهم. فهو مخاطب بهذا الوجوب، بل هو أول المخاطبين به، لتوفر شرط القدرة لديه.
- فعل الصحابة وهو كثير مستفيض.
- ما تقرر في الفقه السياسي الإسلامي من أن أعظم مسؤوليات الحاكم: حفظ الدين. ولا شك أن مِن حفظ الدين منع الآراء التي تناقض الشرع، وتفسد أديان الناس.

وأما القسم الثالث، فالأصل فيه عدم جواز تعرض الحاكم للناس في ما يرون من الآراء المباحة. وذلك لحرمة دم المسلم وعرضه وماله، فلا يجوز التعرض له بالعقوبة بغير حجة. وعلى هذا عمل المسلمين في زمن النبوة وعصر الخلافة الراشدة.

على أن للحاكم أن يقيّد بعض المباحات، إذا كانت المصلحة العامة تقتضي ذلك.

والمرجعية التي يحتكم المسلمون إليها، ويفيئون إلى ظلها، هي مرجعية الإسلام.

ومعنى ذلك أن حياة المسلم الفردية والجماعية، الثقافية والفكرية، الاقتصادية والسياسية، تخضع لمرجعية عُليا هي المرجعية الشرعية الإسلامية، فلا تخرج عن إطارها، ولا تتفلت من قيودها.

ولذلك فإن العلمانية - التي هي فصل الدين عن السياسة أو عن الحياة العامة - مرفوضة في الإسلام، رفضا جليا لا غبار عليه..

مرفوضة لأنها تناقض بوضوح المفهوم الإسلامي للدين، وعلاقته بالدنيا عموما والسياسة خصوصا..

مرفوضة لأنها تحصر الدين في الدائرة الفردية، فتلغي بذلك عشرات النصوص القرآنية والنبوية التي ترشد إلى تنظيم حياة الناس الاجتماعية والاقتصادية والسياسية..

مرفوضة لأنها فكرٌ وافد، ليست له جذور فلسفية على أرض المسلمين، ولا امتداد تاريخي، ولا مشروعية اجتماعية..

مرفوضة لأنها تنتشر في كل مكان، وتملأ كل فراغ، وتحكم الدولة، وتشكّل المجتمع، وتصوغ وعي الأفراد..

مرفوضة لأنها تسوّق نفسها من خلال جميع وسائل التسويق المتاحة اليوم في الإعلام والسينما وشبكات التواصل ومنابر السياسة ومحافل الاقتصاد، أو قل: في كل مكان..

مرفوضة لأنها تظهر نفسها على أنها الحل لجميع المشكلات الحضارية والتنموية للعالم الإسلامي..

ومرفوضة أخيرا: لشدة التباسها المفاهيمي على الناس، حتى إن الكثيرين يقعون فيها عمليا، وهم يرفضونها نظريا..

ولبسط الكلام في هذه المعاني، موضع آخر..

حتى يتبين لهم أنه الحق

يعرف العالم الحديث انتشار فكرة التصادم والصراع بين العلم والدين!

وهي فكرة لم تكن معروفة في تاريخ أمتنا الإسلامية، ولكنها ظهرت في أوروبا، لأسباب تاريخية مرتبطة بخصوصيات الدين الكنسي الأوروبي، وعلاقته بالعلم الحديث.

وقد بدأ هذا الصراع فلسفيا حين وضع الفيلسوف الفرنسي ديكارت أسس الفكر المنهجي العقلاني، التي هدّدت أصول الفكر اللاهوتي الكنسي. واقترن هذا بالتطورات الهائلة في ميدان العلوم الحديثة، والاكتشافات الجغرافية والفلكية، التي تتعارض مع ما كانت الكنيسة تقرره حول الأرض والفلك، وتمتحن الناس فيه على أنه قضية إيمان وكفر!

ثم انتقل الصراع إلى ميدان السياسة، تنظيرا - كما في كتابات فلاسفة الأنوار ثم المدرسة الاشتراكية الفرنسية ـ، وتطبيقا - خلال الثورة الفرنسية وما تلاها.

وأفضى ذلك كله إلى "علموية" القرن التاسع عشر، التي تتميز بتقديس العلم الحديث، واعتقاد كون سعادة البشرية يمكن تحقيقها من طريق العلم وحده بعيدا عن الدين، وأن "الانتصارات" المادية العظيمة التي يحققها العلماء كفيلة بتفسير كل شيء في الكون والمجتمع والإنسان.

وتأكد هذا الغرور العلمي بتطور العلوم الإنسانية ـ خاصة علم النفس وعلم الاجتماع - ومحاولتهما ملء الفراغ الحاصل بعد إزاحة الدين، معتمدة على مناهج علمية تشبه مناهج العلوم التجريبية.

وقد عرف القرن العشرون، ظهور بعض التحفظ والنسبية في هذا الغرور العلمي، حين ظهرت حدود العلم في تفسيراته، والنتائجُ الكارثية للعلم المادي غير المنضبط بالأخلاق الدينية. ولذلك صار العلماء أقل اعتدادا بمناهجهم العلمية، وأكثر استعدادا لاحترام الدين، والاعتراف بمكانته في عالم الإنسان.

ولكن مع ذلك، بقي عدم التوافق بين العلم والدين موجودا في أذهان الناس. ثم استقرّ أمرهم في الغرب على توزيع للأدوار، بأن يكون دور العلم الحديث وصف مظاهر الكون، واكتشاف الوسائل الكفيلة بتحقيق راحة البشر المادية؛ وأن يكون دور الدين - حين يوجد ـ توجيه السلوك البشري الفردي، وتحقيق السعادة الروحية والنفسية.

***

إن الغاية الكبرى التي يُراد العلم لها، هي أن يرى الإنسان بسلوكه طريق العلم والمعرفة، أن ما في الكون والطبيعة وخلق الإنسان، أدلة باهرة على وجود الله وكمال ربوبيته.

وهذا المعنى دل عليه قوله تعالى:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: 53].

إن التدبر «الساذج» في مخلوقات الله تعالى، وعظيم ما فيها من الإتقان، وعجيب ما فيها من الدقة والتناسق، يفضي إلى العلم بالخالق سبحانه. فكيف إذا كان هذا التدبر مشفوعا بآليات العلم ومناهجه ووسائله الدقيقة؟!

إن العلم الحديث يمكنه أن يكون سلّما يرتقي به الإنسان، ليس فقط نحو غايات الرفاه المادي، ولكن أيضا في مدارج العلم بالله، ومعرفة سننه في خلقه، وحكمته في تدبير الكون والإنسان، وذلك من أجل تحصيل السكينة في الدنيا، والسعادة في الآخرة.

والقرآن ليس - في ذاته - كتاب علم، بالمعنى الحديث لهذه الكلمة؛ ولكنه كتاب يدعو إلى العلم ولا يعارضه، ما دام مندرجا في هذا الإطار، ساعيا إلى هذه الغاية

أما حين يكون العلم حبيس المعرفة الظاهرية، ثم هو مع ذلك ينازع الدينَ في الغايات والعلل والحقائق الوجودية الكبرى، التي لا سبيل للإنسان إلى معرفتها دون سند من الوحي، فحينئذ يكون الصدام حتميا:

﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: 7].

فكيف حين يزيدون على الغفلة، التعالمَ والدعوى؟!

خاتمة

وأخيرا..

ها قد آن الأوان لنضع رحالنا، بعد هذه الرحلة التي أرجوها ماتعة لك - أيها الحبيب - كما كان تدبيجُ فصولها ماتعا لي..

ونحن في هذه المحطة الأخيرة، نستجمع قوانا الفكرية، من أجل مجهود أخير..

مجهود نجمّع به الأسئلة التي حركَتها الرحلةُ في أذهاننا، والمشاعر التي أثارتها في نفوسنا، فنرجع إلى مواطن الظل التي نرى أنها لا تزال محتاجة إلى بحث أدق، وتأمل أعمق، واطلاع أوسع..

نرجع إليها بعزيمة تهدّ الجبال، وهمة تناطح السحاب..

وأعيننا تلتهم الأفقَ البعيد، حيث الغاية التي نسعى إليها بكل ذرة من كياننا:

رِضا ربنا..

وفي ضمنه: سعادةُ الدنيا والآخرة..

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

د. البشير عصام المراكشي

الرباط، المحرم 1440

لائحة الموضوعات